صعيدي صح

مجموعة قصصية

عزة عزت



صَعيدى صُح

مجموعة قصصية

د. عزة عزت

لوحة الغلاف للفنان : **محمد عمر**

الطبعة العربية الأولى : اكتوبر ١٩٩٨

رقم الإيداع : ٩٨/٩٢٨٦

الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977-291-090-X



السلسلة الأدبية

الجمع والصف الإلكترونى

مركز الحضارة العربية

تنفيذ : محمد الغليونى

٤ ش العلمين عمارات الأوقاف

ميدان الكيت كات

تليفاكس : ٣٤٤٨٣٦٨

عزة عزت

صَعيدى صُح

مجموعة قصصية



إهداء

إلى أعز الناس ..

أهل بلدي البسطاء

مشاركة مني في معاناتهم

عزة

صَعيدى صُح

" يمارس مهام عمله ، متجنباً شتى صنوف العقاب .. وإن كان غير ناج من السخرية التى يصمون بها أهله وعشيرته ، والتى غالباً ما تبدأ بعبارة معتادة : « واحد صعيدى .... » ولم يكن يضحك لهذه النكات " .

كان « عطيطو » صبياً أسمَر جميلاً .. جمالُه له طعم خاص - بل خاص جداً - يتـعلق بطين الأرض وتربتهـا .. فهو ابنُ الصـعيـد « الجوانى » .. لم يأت إلى العاصـمة بإرادته .. بل أتوا به إليـها عنوة ؛ ليـتكسبـوا من كدِّه .. أرسلوه فى القطار الذاهب شمـالاً ؛ ليعمل فى خدمة البـيوت - وهى مهنة كانت نفـسه الأبية تأنف منهـا - لذلك ظل قلبه الصـغير يهـفو إلى « وابور الساعـة ١٢ المجبّل على الصعـيد » ، فرغـم انبـهاره - كأى قـروى ساذج - بالمدينة وأضوائهـا المتلألئة ليلاً ، وازدحام شـوارعها نهاراً .. ورغم حـملقته الشديدة فى الوجوه البيضاء البضة ، يستطلع مـلامحها وملاحتها ، ويقارنها بوجوه نســاء نجعـه الغافى فى حـضن الجبل ، وقد صـبغـتها الشـمس بلون داكن، فلـم يبق من بياضها إلا الغضون الغائرة من أثر العبوس الدائم ؛ تجنباً لحرارة الشمس وضوئها اللافح .. وقد تحولن على حد تعبيره إلى « حدادى تُغمغِم وجهها » .

رغـم مـرور الأيام والشـهـور على « عطيطـــو » ، أو « عطيتـه » ، أو عطية الله كما هى أصل تسـميته - رغم مرور الشهور عليـه فى العاصمة ، ظل ذلك الولد الأسـمر معـتزاً بذاته ، يرفض بشـدة أن يُهان ، لذا يُنجـز ما

يؤمر به بسرعة واتـقان ، حتى لا تمسه يد أو عصا .. ويرفع عيـنيه الواسعتين الداكنتي السـواد - التي يكـاد سوادهمـا أن يملأ حدقـتيهـما - في اعـتزاز بنفسـه ، رافـضاً أي إهانة أو سـخـرية .. حتى لو كانـت من باب ما يسمـيه أهل مصـر : « التريقة على الصعـايدة » . وهو أمين لا يمد يده على شيء لم يُعط له .. حـتى لو سـال له لعـابه .. فكثـيرة هـي مآكل المدينـة التي لم يكن يعرفهـا في بلدته .. بل حتى لم يسمع عنهـا فيما يقوله العـرّيف في الكُتّاب عن مشارب ومطاعم أهل الجنة .. « فالقطوف الدانية والفاكهة ذات الأفنان» كان يعرفها - وإن لم يع معنى الأفنان - إذ تذوقها مرة من بستان كبير مُسوّر على مشـارف قريته ، يملكه أحـد علية القوم ، أما أكـلات المدينة التي تنضح بالعسل والسكر وتحفل بالمكسـرات ، فلم يرها من قبل .. ولا حتى حلم بها، كذلك قطع اللحم المشـوية الشهية الرائحـة ، وأنواع « المربى » المصطفّة على رف المطبخ الذي يعـمل فيـه ، والتي كـانت تغريه بأن يمـد فيـها أصـبعـه ثم يلعـقهـا ؛ ليـمتـص ما علق بهـا من رحـيق - لـم يسـتجب لهـا .. وأبداً لم يفعل، بل قاوم في كبرياء وأنفة .. تميـزان كل أهله الذين يشبعهم أهل مصر سخرية ونكاتاً .. وهم من يخدمونهم، ويعمِّرون ويبنون لهم ، ويحرسونهم.

ويظل « عطيـطو » يعـمل طوال الشـهـر دون كلل أو مـلل ، يتـعب ولا يكسـب كـما يقـول «المنولوج » الشهـير الذي حـفظه حينمـا شعـر أنه يكاد يتحدث عن حاله ، وكان يردده في نفسه كثيراً ، ويجهر به أحياناً :

- فـيـه ناس بتـتـعب ولا تكسـبش .. وناس بتكـسب ولا تتـعـبش .. متستعجبش متستغربش !!

فـقد كـان « عطيطو » يكد ويشقـى ليحـضر جـده في بداية كل شهـر ،

محملاً بزوادة تملأ «مقاطف » وسلالاً من « العيش الشمسى » و« البتاو » ، و« الفايش » مما تعجنه أمه ، وبعض العلب الصدئة المملوءة « بالملوحة » و« المش » والعسل الأسود ، وكثير من الأكياس المختلفة الأحجام ، والمصنوعة من القماش القديم التى تضم بعض أعشاب الأرض الحارة فى « نجع الترامسة جبلى » من كمون ، وكركديه وملوخية ناشفة لزوم عمل « الشلولْو » ، ومن بقولها من ترمس وفول سودانى تُحمص على الرمال الصاهدة من حرارة الشمس اللاهبة دون نار ، تُحمّلها أمه لجده، بعد أن تجمعها ، وتحضرها ، وتضعها فى صُرر تربطها بإحكام ، وترصها فى « المقاطف » و«القفف» ، وتغطيها بقطع « الخيش » و« الدمور » وتحيكها من أطرافها بخيط الدوبار المصنوع من ليف الصعيد الأحمر ، وتُحكم إغلاق العلب وتحبك وضعها جميعاً فى سلال وأقفاص ؛ حتى لا ينسكب المش على العسل فى رحلة السفر الطويل فى القطار ، الذى يشق الطريق إلى بلد فيه المحبوب الصغير ، الذى إشتاقت عيناها أن تكتحل برؤيته ، ولا يأتيها من أثره إلا هدايا القاهرة - أم الدنيا - رداً على ما أرسلت من زوادة .. يأتيها الرد سكراً ، وزيتاً ، وحلويات مصر ، وجنيهات قليلة هى أجر « كد عطيطو » طوال الشهر ؛ لتنفق منها على أشقائه الأصغر الذين مات عنهم أبوهم ، وتركه عوضاً عنه .

يكاد « عطيطو » على البعد أن يرى أمه - وكأنها رؤيا العين - وهى تدعو له ، وتُقبّل بعيون دامعة كل ما حمله الجد إليها فى رحلة العودة قبلى من « ريحة الحبايب » .

ويشعر « عطيطو » كل شهر بثقل المسئولية الملقاة على عاتقه ، والتى

جعلته فجـأة رجلاً قبل أوانه .. فقد قالتـها له النسوة جميعـاً ، ليلة صحا من نومه على عويل أمه الناحب ، الذى زاد من حلكة الليل .. قلن له :

- « يا وِلد .. إنت الحين راجل أمايتك » .

لم يعـهـا فى البـداية .. لكنه أدرك كنهـها يـوم ودعتـه أمـه فى المحطة ، وحمله القطار شمالاً ؛ ليعمل ، وتتأكد لديه المقولة كلما أتى جده كل شهر؛ ليحصل على راتبه ، ويحـمل مع المرتب بعض علب السجائر الماكينة ، التى يتعاجب بها أمام أنداده من « كد عطيطو » .

وكبرت الكلمة فى رأسه .. وشعر بل أصبح بالفعل رجـلاً قبـل أوانـه ، وكأنه فـاكهة قُطفت علـى حد قوله : « عـجر .. من فوق السـجر » ، ولعل ذلك ما جعله مـعتزاً بذاته أكثر ، يرفض السخـرية والنكات .. وكل ما يقال عن قومه ، ويعتبرها إهانة لشخـصه بالذات ، تحمر لها أذناه ووجنتاه - رغم لونهمـا الداكن السمرة - وكـان فى البداية يتحـملها متـمتمـاً بكلمات ، لا يستطيع أن يـرفع صوته بها ، ثم بدأ صـوته يعلو فيـما يسمـونه : « برطمة » مُعلناً رفـضه بشدة للإهانة ، شـاخصاً بنظرة مسـتنكرة رافضة لمن يسـخر منه حتى لو كانا منفردين .

وكان أكـثر ما يحـز فى نفس « عطيطو » أن يسخـر منه أحد فى حـضرة أغراب ، وقد حدث المحظور يوم تجمع حشـد من الزوار فى مناسبة سعيدة ، ألبسوه فيها قفطاناً من الشاهى اللامع ، وحزاماً أخضر ؛ ليُكمل زينة المكان ، بعمته الشاهقة البياض ، وسـمرته الجميلة ، التى تزيد من لمعان عينيه وأسنانه .. وكـانت فرحـته بالزى الجـديد لا تعـادلها فـرحة ، غـير مـدرك لأسبـاب ابتسامتهم كلما نظروا إليه .. وكان انبهاره بزينة المكان وبمظاهر البذخ البادية

على الزوار - خاصة النساء منهم - وهو يقارن بينهن وبين النساء «الحدادي» فى لجع الترامسة ، انبهاراً كاد يذهب بعقله .. ووسط الزحام نادته سيدة الدار ، ومدت يديها إليه ، ليحمل عنها صينية كبيرة ، عليها إبريق وأكواب من زجاج مشغول ، وكأنه « فتافيت » سكر متلاصقة شفافة، تعكس إنكساراتها أضواء براقة ملونة ، لم ير مثلها من قبل .. ومد عطيطو يده ؛ ليحمل الصينية وهو سارح بخياله فى صورة رسمها فى عقله قبل سنوات قول العريف وهو يحفظهم القرآن :

« أولئك المقربون . فى جنات النعيم . ثلة من الأولين . وقليل من الآخرين . على سرر موضونة . متكئين عليها متقابلين . يطوف عليهم ولدان مخلدون . بأكواب وأباريق وكأس من معين . لا يُصدَّعون عنها ولا يُنزفون . وفاكهةٍ مما يتخيرون . ولحم طيرٍ مما يشتهون . وحور عين . كأمثال اللؤلؤ المكنون . » صدق الله العظيم .

ولم يفق من سرحته الطويلة إلا بسقوط الصينية ، والإبريق الجميل ، والأكواب محطمة آلاف القطع على الأرض ، ومخدومته تصيح فى وجهه بما لا يعيه ، ولا يستوعبه من هول ما حدث .. كل ما التقطته أذناه قولها :

- « دى كريستال ثمنها يساوى عمرك » .

واستشعر الحرج وهى تنقض عليه ممسكة بتلابيبه ، وسط سيل من السخرية ينهال عليه من كل حدب وصوب .. استنفر كل خلجات نفسه الأبية ، فانفلت من قبضتها بأعجوبة ، زاحفاً على ركبتيه وسط بحر من الزجاج المحطم ، ناجياً بنفسه من لُجة رذاذه المتطاير ، وكفاه تشلبان دماً .. هارباً خارج الدار ، مطلقاً لساقيه العنان ؛ لتقوداه إلى المحطة .. فهى المكان

الوحيد الذى يعرفه - فقد أتى منه - وتقوده إليه أقدامه ، ويهفو إليه قلبه دائماً .

وفى المحطة راح يراقب القطارات الوافدة والغادية ، وشارف النهار على الانتصاف وقاربت الساعة «اتناشر» فدق قلبه لصوت « الوابور المجبِّل على الصعيد » .. وانطلق الوابور يعلو صفْيره ، وعطبطو فى مكمنه يُطالع من على الرصيف الركاب المحملين بالزيارات للأهل ، أقفاصاً وسلالاً ومقاطف وأجولة من خيرات مصر ، من نتاج « كدّهم » فى العاصمة التى بُنيت على أكتافهم .. وجوههم وجوه رجال نحتتها الشمس بصهدها اللافح - رجال بلده الذين أتوا مثله ؛ ليتعبوا ويشقوا من أجل زوادة ينتظرها الأهل - وفكّر أن يندس بينهم .. لكنه تراجع ؛ فهو رجل تنتظر كدّه أسرة ، تعيش فى « نجع الترامسة قبلى » .. ولعل ما جعله يتراجع أنه خرج هارباً ، وهو لا يملك ثمن تذكرة « الوابور » فانكمش على نفسه فى زاوية إلى جوار أحد أعمدة المحطة متوارياً محسوراً .

بدأ الجوع يقرص معدته .. وهو لا يعلم كيف يسده .. الشحاذون من حوله كُثرٌ .. لكنه رجل .. ونفسه العفيفة تأبى أن تتسول اللقمة .. وهو من اعتاد أن يعمل ، ويأكل من عرق جبينه .. انتظر ساعة ، ثم بضع ساعات ، حتى استبد به الجوع ، فانطلق يعدو على الرصيف خلف القطارات ، يحمل حقائب المسافرين والقادمين دون فرق ، ويجمع فى « سيّالته » العميقة قطع العملة المعدنية ، دون أن يعدها .. وحينما هده الجوع والتعب ذهب ليبتاع طعاماً ، فاختار وانتقى أحلى ما فى واجهات المطاعم ، وأغلى ما يحمله الباعة الجائلون .. ثم جلس ليستريح ، فما لبث أن شعر بإقبال الليل عليه ..

بل شعـر بأنه يجـثم على صدره كطائر « الرخ » الخرافى الكبـير .. وبدأت تخالجه مشاعر الغربة والوحشة ، والوقت مازال طويلاً حتى ينتصف الليل ، ويحل موعد « وابور الساعة ١٢ » الذى « سيقبِّل » به إلى الصعيد .

راح يستـعرض أحداث يومه المشـحون ، وراجع نفسـه فى فكرة العودة إلى « النجع » .. وعـدل عن فكرة أن «يقـبِّل » نحو الصـعيـد - فهـو رجل ومسـئول - وهناك من يعـيشون من كـدّه .. كررها فى نفسه ، وراجعـها ، فشعر أنه اليـوم لاشك قد أخطأ .. وأنه تسبب لسيدته فى خسارة حـقيقية ، «تسـاوى عمـره » على حـد تعبيـرها .. وهو على أى حـال يذكر لهـا كل طيب.. فكم شعـر أنها كأمه ، وتذكّر أنهـا كثيراً مـا ربتت على ظهره بنفس الكف التى لطمـتـه بهـا اليـوم .. وقـرر أن يعـود إلى البيت الذى ولى منه هارباً.. لكن نفـسه الأبيـة استـنكرت أن تُذل ، وخاف أن يعـود ؛ لينال من العقاب والإهانة ما هرب منه .. ولابد له من شفيع يدخل به الدار ، ويحميه من الضرب .. ولكن أين منه هذا الشفيع ؟؟

لم يفكر كثيـراً .. بل انطلق إلى واحد من بلدياته - وما أكثـرهـم حراساً لبوابات العـمارات الشاهقة المجـاورة للبيت الذى يعمل فيـه ، وتصادف أن أوصته سيدة الدار أن يبحث عنه ، فاقتاده الرجل إليها ، طامعاً فى «الحلاوة» وكأنه قد حـصل لها على التائه .. واسـتحلفها بلدياته ألا تضـربه ، ورجاها أن تقبل شفـاعته ، ودخل « عطيطو » كفـأر مذعور العينين - مـقراً بذنبه - وهو من اعتادت هامته القصيرة عـلى الشموخ والاعتزاز .. وأغراه ما قوبل به من تسـامح على أن يمارس عـادته التليدة ، فـمـا إن سألتـه سيـدته : أين كنت؟! حتى قال باعتزاز وزهو :

- « اشتغلت .. كلت وحليت » .

فلكزته فى كتفه قائلة :

- « ولماذا لم تبت أيضاً ؟! »

« فبرطم » بكلام غير مفهوم .. ودخل لينزوى فى ركن المطبخ ، غير آمن على نفسه .. يعيد التفكير فيما حدث غير مصدق .

مرت أيام و« عطيطو » يمارس مهام عمله متجنباً شتى صنوف العقاب .. وإن كان غير ناج من السخرية التى يصمون بها أهله وعشيرته .. والتى غالباً ما تبدأ بعبارة معتادة : « واحد صعيدى .... » ولم يكن يضحك لهذه النكات .. رغم أن الجميع ينسطحون مقهقهين لترديدها وتكرارها .. لكنه - وللحقيقة - لم يكن يضحك ليس فقط لرفضه لهذه السخرية والاستهزاء من قومه .. ولكن لأنه لم يكن يفهم - فى أغلب الأحيان - فحوى النكتة ومغزاها .. وكثيراً ما شغلت باله هذه النكات ، فجعلته يسهر وحده ؛ يستعيدها فى نفسه ويفكر فيها ليلاً .. ويظل يبحث لها عن معنى وتفسير دون جدوى ، فيبتسم وجهه الذى يعبس دائماً لسماعها ، وقد وعى معناها متأخراً جداً ، فيعترف بينه وبين نفسه بأن : « الصعايدة صُح يستحقون التأويز !! » فهم - وهو منهم - لا يفهمون بسرعة حتى نكات أهل مصر .

ويغفو « عطيطو » دائماً مبتسماً ، وهو يسترجع كل ما استمع إليه من نكات النهار ؛ ليستيقظ على وابل آخر من السخريات ، من كل أفراد الأسرة التى ظن أنه أصبح واحداً منها .. لكنه اليوم استيقظ - دون أن يفيق - على جلبة شديدة الوطيس .. لم يتبين تفاصيلها ، وأفاق على ركلة قوية فى جنبه أقعدته .. ويد تجذبه من ثوبه الفضفاض أوقفته .. وسيل من الصفعات ينهال

على وجهه ، وأصبع تُشـرع أمام عينيه متهمـة إياه .. حاملة إهانة لا يستطيع تحملها ، وتقاذفته الأيدى المتهمة له بالسـرقة .. فلم يع شيئاً مما يدور حوله. لكنه راح يُقسم ، ويُغلظ فى الأيمان ، ويحلف لهم - وهو صادق - ولا من مصدق له .

وبأعجوبة منحـتها له قوة خـفية رافضة فى داخله لكل مـا يقال ، انفلت من بين أيديهم ، وانطلق إلى الطريق ناجياً بنفسه ، عارفاً وجهته تماماً . ولـم يمنح نفسـه الفرصة ليـفكر .. وهناك ودون عناء قادته قـدماه وقلبه مـعاً إلى الرصـيف الذى يقف عليـه « وابور الســاعة ١٢ » ، ودون أن يراجـع نفسـه اندس بين ركابـه الصعايدة ، ناسـياً أنه رجل ، وأن هنـاك من ينـتظر كدّه .. وبكى طويلاً وهو « مجبّل ع الصعيد » .○

اختصاصات (عم جلال)

" وقائع بعينها ، وأيام يتحسرون عليها ، وكأنها الزمان الجميل الذى لن يعود .. ويمطون شفاهم أسفاً على الأيام الخوالى ويؤمّن كل منهم على حكايا (عم جلال) وآرائه، لأنها جزء من تاريخهم، وقيمتهم " .

تعاقب عليه الوزراء .. وتغيرت الوزارات .. وهو كما هو بوجهه الأسمر النوبى الباسم ، واثق بنفسه ، وبما يؤدى من عمل ، فما يقوم به من مهام لها جلالها ، ولا يمكن أن يستغنى عنها أى وزير .. فعم جلال أقدم العاملين فى هذا البلاط ، تتعاقب الوجوه عليه ما بين وزير أُقيل ، ووزير استقال إثر موقف ، وثالث خرج بفضيحة ، ورابع أُجبر على الاستقالة .. وغيرهم ممن ترك المكان بالمرض ، أو بالوفاة ، أو لأنه مغضوب عليه .. ودائماً يبقى « عم جلال » متمتعاً بمكانته لدى الجميع ، فهو يلقاهم هاشّاً باشّاً .. والوزير لا يبدأ يومه ، ولا يوقع ورقة ، أو ينظر فى ملف قبل أن يصطبح بوجه « عم جلال » البشوش ، وفنجان قهوته المضبوط ، وطقوس التقديم الأصيلة : كوب كريستال من الماء البارد ، وصينية فضية لامعة ، وكفه النظيف شكلاً ومعنى ، والذى يجمع النقيضين ، الأبيض الثلجى والأسود الأبنوسى فى وجهيه ، وانحناءته المهذبة الخفيفة .. ووضع الفنجان الصينى الصغير فوق زجاج المكتب بلا صوت ، وانسحابه من المكان بظهره بضع خطوات ، ثم إستدارته نحو الباب فى خطوات منتظمة واثقة .

مهمة يومية يؤديها دون كلل منذ سنوات - لا بل عقود - يضيف إليها

قيمة بمظهره النظيف ، قميصه الأبيض الناصع .. الذى يزيد من بياضه لون بشرة « عم جلال » العنبرية اللامعة ، التى يتسق معها لون أسنانه البيضاء التى تنفرج عنها شفتاه الداكنتان ولثته الوردية ، وعيناه الحوراوان البراقتان السواد ، وسط مساحة من البياض المشرب بحمرة واضحة .

وعادة يؤكد « عم جلال » كفاءته ويبرز مهارته أمام ضيوف معالى الوزير من علية القوم ، ومن الأجانب ، فهو يدرك تماماً أنه جزء مكمل لأناقة هذا المكتب الفخيم ، الذى يحمل بقايا عز قديم ، من أيام الملوك والأمراء .. وأنه جزء من الزمان والمكان الجميل ، حينما كان هذا المكتب غرفة من غرف قصر منيف .. تحول بقدرة القادر ، وبتبدل الأحوال إلى ديوان عام لوزارة يكثر روادها .. ويدخلها يومياً آلاف البشر من العامة .. حتى ذابت درجات سُلمها الرخامى ، وتآكل ورق حوائطها المخملىّ الملمس، التقليدى الرسوم .. ولم يبق من بقايا العز الغابر إلا مكتب معالى الوزير المبطن بالخشب الخرط ، والمقاعد التى مازالت رؤوسها تحمل التاج الملكى البائد ، و« عم جلال » ببدلته الأنيقة ، وبشرته الداكنة .

كان « عم جلال » يعرف قدره تماماً .. ويوقن أنه دائماً الباقى ، وكل الوزراء زائلون .. وكان يتعامل معهم دائماً من هذا المنطلق .. فهم ضيوف عليه .. هو يرحب بهم ، وهو يودعهم ، وكأنهم نزلاء فى رحابه أو فى داره التليدة .

ويجلس « عم جلال » ليتحدث عن تعاقبهم عليه ، ويذكر لكل منهم سمة خاصة به : فمن كان طيب القلب ، ومن كان بخيلاً .. ومن كان عصبى المزاج ، ويظل يحكى ذكرياته معهم ، وكأنهم أصدقاء له .. أو عابرو سبيل

مروا فى حياته الحافلة بالأمجاد .

ويختار « عم جلال » المستجدين من الموظفين ، ليقص عليهم ذكرياته، وتاريخه مع كل من تولى الوزارة .. ويؤكد أهمية دوره ، وخطورة مهامه ، وتعدد اختصاصاته ، فمهمته ليست مجرد تقديم فنجان قهوة أو شاى .. ولكن ما يسبق ذلك من تحضير وتجهيز ، ومشتريات ومعدات، وضبط لميزانية ومخصصات مالية ، وتحقيق هامش ربح مجز لكل من يعملون تحت إمرته من مساعدين .. لا يسمح لهم بالطبع بالخطوة الأخيرة والأهم وهى التقديم ، لأنها أخطر المهام، وأدق الاختصاصات جميعاً .

اعتاد أن يجلس إلى مكاتب المستجدين ، ليعرفهم بقدره .. ولا يعدم من يذكى كلامه ، ويؤكده ، ويضيف إليه من قدامى الموظفين ، الذين عاصروا مثله تعاقب العهود ورجال كل عهد ، ويتذاكرون مع « عم جلال » وقائع بعينها ، وأياماً يتحسرون عليها ، وكأنها الزمان الجميل الذى لن يعود .. ويمطون شفاهم أسفاً على الأيام الخوالى .. ويؤمّن كل منهم على حكايا «عم جلال » وآرائه ، لأنها جزء من تاريخهم ، وقيمنهم المستمدة من أقدميتهم - فهم تماماً مثله - ما يفعلونه هو نفسه منذ عقود ، وهم مستسلمون لوهم الأهمية والخطورة الزائفة ، يشعرون أن العالم لن يستقيم بدون جهودهم ودأبهم اليومى ، فهم السنون الهامة لترس عجلة دوارة ، هم الكفيلون بإيقاف دورانها .

ويمر « عم جلال » يومياً على عدد من كبار الموظفين ، الذين يخصهم بخدماته ويقدم لهم «مشروباتهم» بنفسه ، والكل يغبطه على

سعادته ورضاه عن نفسه ، ولا يرونه إلا باسم الثغر يختال كـغزال أسمر - رغم ضخامـة جسمه - لكن الأمر لا يخلو أحيـاناً من أن تثور ثائرته ، لأتفه الأسباب، فـيما يسمـيه البعض : « زربونة البرابرة » التى كـانت ما تلبث أن تخمـد فى دقـائق بعـد ثورة عارمـة ، ويتكشف القلب الـنقى الطفل من بين انفراج الأسنان البيضاء اللامعة .. وفى كل مرة تكون الأسباب تجاهل بعض الجـهـلاء لأهميـة دور « عم جـلال » ، أو عـدم تنفـيـذ مـساعـديه لأوامـره بحـذافيـرها ، برغم أن مـعظمـهم كان يرضى بمـا يلقيـه لهم - وإن اعـتبـره الفتات- ويطيـعون كل ما يأمرهم به بانبهـار .. لكن الأمر لا يخلو من أحد المتمـردين الذين ينقبون عـن منفذ لهم إلى السطح، إلى المكانة المرموقة التى يتمـتع بها الرجل - أو ما يوهمـهم بأنه يتمـتع بها - فقـد نجح فى أن يصور للجميع أنه أهم شخصية فى هذه الوزارة - هو ومعالى الوزير - دون تحديد منه لأيهما يتقدم الآخر ، إذ لم يصرح بـذلك .. بل تركه لتقديرهم ، فوضعه محبوه فى المقدمة قبل الوزير .. وحقد عليه من يتمنون منصبه الخطير ، حتى لو كان الرجل الثانى بعد معالى الوزير .

راح أحدهم ينقب من خلفه ليكتـشف أنه منتدب وليس معـيناً ، ولذلك فليس من حـقـه التـصرف فى ميـزانية «بوفـيه الـوزير» .. لكن هذه النقطة القانونية قديمة ، ومنسية، ولا يمكن النبش فيها إلا بتواكبها مع خطأ جسيم .. ولكن كيف و« عم جلال » يكاد لا يخطىء ؟ فهو يتقن عمله الذى يعشقه ، ولا يترك مجالاً لأحد كى يجعله يخطىء فهو خبرة نادرة .

وحـدث مـا لم يضعـه « عم جـلال » فى حـسبـانه يوماً .. وهو مـا ظل يُطهى على نار هـادئة وفى الخفـاء ، ليـحـبك قـانونيـاً ، ويُدعّم بأخطاء ولو

مفتعلة ، وبشهادة بعض شهود الزور ، ليفاجأ «عم جلال » باستدعاء مسئول شئون الموظفين له ، لإخطاره بأن وضعه القانونى كمنتدب لم يُسو منذ سنوات ، وأن اللوائح تنص على .. والمادة تقول : .. ونظراً لأن .. وبناء على .. وبما أن .. وحيث أن .. و..

وغامت عيناه اللامعتان من هول ما سمع - ولم يدرك فى البداية معنى أو مغزى ما قيل .. لكنه شعر أن البساط الأحمر الخاص بمعالى الوزير يسحب من تحت قدميه ، وكأن الهيبة المكتسبة لم تكن أصيلة ، ولم يحتمل قلبه الأبيض فهم الحبكة أو المكيدة المحكمة ، ودقة التدبير ، كل ما وعاه أن اختصاصاته الجليلة قد سُحبت من بين يديه ، وكأن صينية عليها عدد من الأكواب انسكب ما فيها على ثوبه الأبيض ، فبللت أوراقاً هامة على مكتب الوزير .. وأمام ضيوف من علية القوم .. وهو ما لم يحدث منه فى حياته ، منذ أتى صبياً نوبياً بشوشاً ، أُختير لهذا المكان ، الذى لم يتصور نفسه إلا فيه ، ولم يتصور أحد حجم إحساسه به ، إلا بعد أن رأوه يسقط مجندلاً بينهم ، يرغى ويزبد من فمه الذى كان ضحوكاً .. وقد مال وانحرف عن مكانه ، ولم يخرج من بين شفتيه المعوجة إلا حشرجة وخوار عال ، ارتعب له الواقفون من حوله ، ورأوه يحاول أن يرفع يده، أو يرفع صوته أو يمارس ما اعتادوا أن يسمونه : « زربونة البرابرة » فلم يستطع وكأنها كانت جزءاً من اختصاصاته الهامة التى سُلبَت منه .○

المحطة والجلابية

" ينتقلون فجـأة من لغة إلى لغة ،
وفقاً لنوعـية محدثهم ، فـيخلقون
لغتهم الخاصة جـداً ، والشبيهة بما
يرتدون مـن غطاء رأس عـــربى ،
ولباس آسـيوى .. ولغـة مشتـركة
بين الاثنين " .

عبارات محفوظة هي فقط التي تتردد بسلاسة مفهومة .. والباقي يُنطق، ليحقق فقط الغرض من الاتفاق .. وتُعقد الصفقة ، فيُفتح باب السيارة ، ليكسب راكباً جديداً ، وعلى وجهه ابتسامة فرحة برزق كتبه الله له ، يُقرّب موعد الانطلاق بالمركبة .. ويُقرّب الحلم البعيد ، الذي أتى من أجله إلى هذه الأرض ، أو إلى هذه الساحة الفسيحة ، التي تحفها البنايات من كل جانب ، وكأنها أسوار عالية .. لكن لها مخارج عدة ضيقة ، يمكن أن تتسرب منها الكائنات والمركبات التي تقلها ، فهي ليست كجبلاية القرود التي اعتدنا أن نقف من فوقها لنطل ، فنراها محبوسة داخلها حبساً قسرياً .. يطالعها الناس من فوق الجدار الأملس ، الذي لا تستطيع تسلقه، ولا تملك الهروب منه .

حرة فيما تمارس داخل هذا الإطار الفسيح ، فهي تمارس حياتها بكامل حريتها ، في مكان بغير سقف ، على مرأى من المتفرجين والماره .. وترفع أعينها الكسيرة إليهم من آن لآخر ، متعجبة من وقفتهم هذه .. ومن حملقتهم فيها ، ويكاد لسان حالها يتساءل : فيم تحملقون ؟! « من راقب الناس مات همّاً » .. لكنها ليست كالناس .. إنها أنواع من القردة

والنسانيس .. تمارس حكمتها التى يعرفها البشر ويكتبها أو يتمثلها بعضهم، دون أن ينفذوها : « لا أسمع .. لا أرى .. لا أتكلم » فالقردة لا تهتم بما يدور حولها .. ولا يعنيها من أمر غيرها شيئا .. ولا تُعير التفاتاً لحركة المحيطين بها .. وإن كانت مراقبة الناس لها تثير دهشتها ، وترد عليها بلفتات خاطفة من أعينها الضيقة الملونة .. نظرات تحمل معانى كثيرة من الدهشة والتنمر .. لكن أغلبها ينضح بعدم الاكتراث والتجاهل ، وكأنها تقول للناس :

- إنكم لا تستحقون التأمل .. ولا يُثيرنا منكم إلا فضولكم الأبله .. فماذا تريدون ؟ ومـاذا تفيدون من تأملكم لنا ؟! وفيما تضحكون ؟ وعلام تشيرون دهشين ؟ كائنات كبيرة الشبه بكم ، تمارس حياتها الطبيعية بعفوية .. أشكالها لا تفترق كثيراً عن صوركم فى المرآة - لو دققتم النظر - ولو تحركتم بحرية أمامها .

وتتداعى للخاطر صورة الجبلاية وقرودها ، أمام الساحة الفسيحة التى تحفها البنايات فى إحدى المدن العربية ، يتحرك فيها بشر مثلنا .. ولكن تبرز أوجه شبه كثيرة بينهم وبين القردة .. مع فروق طفيفة ، هى أن لهذه الجبلاية منافذ للخروج ، ومع ذلك من يخرج منها لا يلبث أن يعود على جناح السرعة ، طائراً بسرعة أكثر من مائة كيلو فى الساعة ، ليلحق بدوره مرة أخرى داخل الجبلاية .. ويأخذ موقعه فى الحبس الإرادى الذى يمارسونه يومياً .. ويطول انتظارهم أحياناً فيمارسون داخل ساحتهم الفسيحة حياة كاملة من المشاعر : أيد تتصافح ، وقبلات تطير فى الهواء، لأن الشفاه غالباً لا تلامس الوجنات .. بل يصطك الصدر بالصدر يميناً ويساراً ، فى أسلوب

خـاص بالسـلام ، يمـارسه هؤلاء القـوم الآتون من بلاد بعيـدة ، بحـثـاً عن الرزق ، فى بلاد لا يتحـدثون لغتهـا .. لكن أفواههم تلوك بعض كلمات ، لا هى عربية ، ولا هى أعجمية .. فـيعوج الجميع ألسنتهم من أجل مزيد من التفـاهم ، وما يلبث العرب أنفسـهم أن ينجرفوا معـهم ، ليتحدثوا بلغـتهم الخاصة جداً ، فى محاولة منهم للفـهم والإفهام ، وتتكرر عبارات تُهدر كل القـواعد اللغـوية ، فـقط « السلام علـيكم ورحمـة الله وبركـاته » العبـارة الوحيدة السـليمة لغوياً ، إلى جانـب بعض العبارات المحفوظة المتبادلة بين رواد الساحة الفسيحة :

- « رفيق هذا زين »
- لا .. مو زين
- هادى چنطة ، ما فى سمان ، كم بيزات ؟
- أعوذ بالله من الشيطان الرچيم
- أستغفر الله العظيم .. هذا خراب ..

عبـارات يغلب عليهـا الإيمان والتسليم فى هـذا التجمع الغـريب شكلاً ولوناً .. فعمـائم الرءوس قطعة طويلة من قماش أقـرب إلى الشاش الطبى الأبيض .. وإن اختلفت درجات البياض من الاتساخ ، تلتف فوق الرءوس كعمـم الأفارقة المحبوكـة بعشوائية مـحببة ، رغم أنـهم جميعاً قـادمون من القارة الأخرى - آسيا - ويتدلى من العمامة طرف طويل يصل حتى الكتف فى دلال وعـجب ، وأنوف مـعقـوفـة بارزة بين وجنتين بارزتين ، أسـفلهـا شوارب تتصل بالأذقـان .. وعيون ملونة بالعسل والخضرة ، تحفها أهداب كثيفة .. لكن نظرتها غير العابئة تُذكّر بقرود الجبلاية

وتغوص الملامح وسط الحواجب الكثة ، والشوارب واللحى الطويلة ، المشعثة المحناة .. وتتناغم ألوان أزيائهم الفاتحة فى مجملها ، وإن غلب عليها لون قلب الفستق بكل درجاته .

وككل أهل الريف فى أى محطة أقاليم فى دولة من دول الشرق ، يتمخط أحدهم من بين أصابعه ، وينطر يده ، ثم يمسحها فى قميصه الطويل المستدير الجوانب ، من فوق سروال غاية فى الاتساع .

أحدهم خرج لتوه من المراحيض العمومية فى المحطة .. يُعدّل من ثيابه، فيكشف فى سبيل ذلك عن ظهره ، وبطنه المكسوة بالشعر الكثيف وكأنه الإنسان الأول ، المنحدر من أصل قرد .. قبل أن تطوله يد التطور «الدارونية » .

وآخر يجلس القرفصاء على حافة الرصيف .. ونصف قدمه خارجها ، يتسلى بقضم شىء صغير جداً بين أصابعه - إن لم يكن بين أظافره - لا يكاد أحد أن يراه .. وبين الفينة والأخرى يحك جلده بحدة دامية ، ويمد كفه وأصابعها الطويلة تحت العمامة الملتفة بعشوائية ، فيحركها إلى الأمام ، لتسقط على حاجب واحد فى وضع معجبانى ، ليحك فروة رأسه ، ثم ما يلبث أن يجلس على مقعدته محتفظاً بساقيه فى وضعهما لافاً ذراعيه حولهما ، ليحتفظ بالوضع القرفصائى متوازناً.

وآخر « فنطته » الغربة والسفر - إلى حد ما - يحتفظ بزيه الوطنى .. وإن خرج على المألوف برأسه المكشوف عن شعر أسود جميل وكثيف .. وقلم يطل من جيب على صدره ، وخاتم فضى كبير فى بنصره ، وحذاء وجورب أسودان ، يمسك فى يده مسبحة - لكنه يجلس القرفصاء كالقردة-

وأطراف أصابعه الأمامية خارج حافة الرصيف أيضاً ، ويصدر منه تثاؤب طويل عال ، تعقبه كلمة : « الله » بصوت جهوري عال مفعم برغبة فى النوم ، أو فيه أثر منه .

وثالث يلف بين يديه - بحركة عصبية دءوب لا تتوقف - سلسلة فى نهايتها ثقل .. يبث الشكوى لزميله قائلاً :

- حُرمة ما فى .. ما فى زين .

فيرد الزميل ، وأصابعه تلعب بحبات المسبحة الفيروزية اللون .. وكأنه يلخص له الحل فى حكمة من كلمتين :

- صيام زين .

ويطول الانتظار ، فيلتهم نصف النهار .. وما أن تمتلىء السيارة بالركاب حتى ينطلق السائق راكب الحمامة الفرنسية ، وكأنه طيار يخترق السحاب ، فيستعير أحدهم قلماً ، ليسجل شيئاً على الجدول المعلق على جذع شجرة تتوسط الساحة الفسيحة ، ويثور جدل غير مفهوم حول وضع إشارة أمام اسم عبد الله ، ويحتدم النقاش دون أن يُفهم منهم إلا اسما : جميل ، وعبد الله ..

وعلى الجانب الآخر من الشجرة تعلق الشبكات الحديدية الخاصة بالسيارات ، وعليها يعلق أحدهم غطاء رأسه التى كشفها عن صلعة لامعة تتناقض تماماً ولحيته الكثة الطويلة .. وقد خلع نعليه ووطئت أقدامه وجه النعال ، بحثاً عن الحرية بحركة أصابعه المتعبة المُتربة .

ويعود الصوت ليعلو بالنداء - كما فى أى محطة فى أى موقع من

الشرق - كلمات مدغمة، تعني باختصار أسماء المدن التى يتنقلون بينها ، أو تمزج بين اسميّ مدينتين فى غمغمة محببة مفهومة ، وتعلو الأصوات مرة أخرى .. خليطاً من لغات شرقية .

- نهى نهى - ممنوع - هذا مالى .

وينتقلون فجأة من لغة إلى لغة ، وفقاً لنوعية محدثهم ، فيخلقون لغتهم الخاصة جداً ، والشبيهة بما يرتدون من غطاء رأس عربى ، ولباس آسيوى .. واللغة مشتركة بين الاثنين .

وجوه لا تخلو من وسامة ، تبث بعضها البعض شكوى واحدة من فراق الأهل والأحبة ، ويتجمع خمسة منهم فى ساعات الانتظار التى غالباً ما تطول ، يتفحصون بإمعان غطاء وسادة من الحرير الأبيض اللماع ، مطرزة الحواشى بألوان صارخة ، تتفق ومزاجهم الشعبى ، الذى لا يختلف كثيراً عن أذواق البدو فى قلب أى صحراء ، أو أذواق الأفارقة فى قلب الغابات ، أو حتى الفلاحين على شواطىء الأنهار ، بألوانهم التى تشبه يوم العيد .

يحتضن أحدهم غطاء الوسادة ، ثم يطويه ويكومه بين يديه ، ثم يفرده مرة أخرى ، ويظل يتأمل ما عليه من رسوم ، ويرفعه بين يديه ، ثم يجلس ويبسطه على فخذيه ، ويمر عليه بكفه ، وهو يتأمله ، وكأن وجه محبوبته قد ارتسم عليه ، بين الخطوط والخيوط - لا يراه إلا هو - ويتمتم بصوت خفيض لغة مبهمة ، وكأنه يناجيها .. ثم يلقى برأسه إلى الخلف مستلقياً ، حالماً ، فى وضع لا يتناسب مع ما يعانيه من شقاء وغربة .. ولا يتناسب والجبلاية التى يتقافز فيها النفر الآخرون ليلتفوا حول ورقة مقسمة إلى

مربعات ، هـى جدول تحركهم من المحطة .. مـسالمون لا يختلفون كـثيراً .. وإن دخل اثنان منهم فى صراع بالأيدى على سبيل المزاح .. وقد جريا بعيداً فى عبث طفـولى برىء ، يفرغون فيه شحـنة انفعالاتهم الداخلية ، ومشاعر الكبت الذى يعانون منه .. ومازال صاحب الوسادة مستلقياً على قفاه .

جـبلاية كاملـة الشخـوص ، لا يُفـهم مما يدور فـيـهـا إلا لغة الحـركـة والإشارة، أما ما يدور فيها من حديث متصل فهو كلام لا يفهمه إلا سكان الجبـلاية فيمـا بينهم ، ولا يُفهم منهم إلا مـا يجودون به من ألفاظ التـفاهم المشترك مع رواد المحطة ، الذى يفيض بالحمد والشكر والثناء ، والاستغفار من الذنب العظيم .. والاستعاذة من الشيطان الرجيم .

ويعلو صـوت الآذان ، بينمـا صـاحب الـدور يجـمع أوراق النقـد التى حصّلها من الركاب بين يديه ، فيعدها ، ويفـركها بين أصابعه ، ويدسها فى جيبـه ، ويعلو نداء الرزق فيتجاهل نداء الســماء منطلقاً بحمولتـه من البشر والمشاعر . ○

أقطاب مختلفة

" أصبحت أرى الحرام ، وأتمثله في كل شيء .. ولا أرى في حياتي اليومية - رغم تحفظها البادي - إلا المحرمات والممنوعات ، وتتداعى الخواطر الفجة إلى رأسي رغماً عني " .

لون رمادى يُغلف الأشياء والأشخاص من حولى .. لعله ما جعلنى أرفض هذه الدعوة أيضاً، كما رفضت عشرات الدعوات من قبل .. فقد بت لا أرغب فى أن أرى أحداً ، أو يرانى أحد .. ولم تعد لى رغبة فى أى شىء .. بل فقدت الرغبة فى الرغبة نفسها .. وبدأت أشعر كأنى أصبحتُ عجوزاً .

بداية اكتئاب حقيقى أشعر أنه يتسلل إلى نفسى ، ويلف المكان من حولى .. بعد أن مللت الحياة ، وكدت أشعر أنها ملّتنى أيضاً .

إحباط لا أعرف له سبباً . أو لعلنى أعرف السبب ولا أريد الاعتراف به حتى بينى وبين نفسى .. فقد كان المفروض أن تسكن نفسى ، وتقر عينى راضية مستسلمة نتيجة لما حدث فى حياتى من تطور - لا أستطيع الآن أن أراه تطوراً - بل فقط هو تغيّر .. تغيّر جذرى فى كل مناحى حياتى ، وتحركاتى ، وحديثى وصمتى ، وكأننى لم أعد أنا .. تغيير بسيط جداً فى مظهرى ، وطريقة لبسى فقط .. لا أدرى كيف امتد ليطال داخلى ، روحى ، نفسى ، فكرى ، وجدانى ....

جلسـت إلى المرآة أستـطلع ما اعتـرانى من تغييـر ظاهرى .. أتفرس فى الأجزاء الظاهرة من جسـدى - وجهى وكفّى - هما ما تبقى من شـخصيتى التى يراها الناس ، بعد أن إختفى ليلى الحـالك الذى كان يحيط بهذا الوجه فيـزّينه ، ويعلو رأسى كـتاج يمنحـه رونقاً - لكنه سـقط تحت غطاء سمـيك يكاد يخفى حـاجبىّ ، بعد أن تركـتهما دون أدنى تـهذيب ، فباتا أشـعثين ، وكادا يطبـقان على عينىّ الضيـقتين اللتين افتـقدتا الظلال الملونة ، والخطوط التى كـانت تزيـدهمـا اتسـاعـاً ولمعـاناً ، وأحـاط بوجنتى الـلتين لم تعـودا متـوردتين بوهج العافيـة والإشراق .. ولا حتى بالمسـاحيق .. وأيضاً شـفتى اللتين طالما حددتهما ، ولـونتهما بما يزيد من اكتنازهما ، أصابهـما جفاف ، وبهتتا تحت وطأة افتقاد ابتسامتهما ، وما كان يسيل عليهما من حلو الكلام ، الذى أصبح لغواً - يجب تجنبـه - بعد ما اعترى ظاهرى من تغييـر ، استتبع بالضرورة أن تتـغيـر ملامحى الخـارجيـة والداخلية ، وأحاطنـى بهذا اللون الرمادى لكل ما يحيط بى .

حـتى كفـاى اللتان قُلِّـمت أظافرهمـا بجور شـديد ، ومُحـى عنهـم الطـلاء عكسـتـا ما بداخلى من رمـاد وجـفاف .. فـبعـد أن كـانت كفـاى بأصابعهما الطويلة النحيلة المهذبة دوماً ، المطلية بألوان تعكس فى حركتيهما كل ألوان الفرح .. أصبحتا تعكسان رتابة وبرودة غـير موحية بأى لفتة شابة جامحة ، فوجـدتنى - رغماً عنى - أقلل من حركتهمـا .. بل أكاد أنساهما .. فسكنتا إلى جـوارى ، وكأنمـا أصابهما شلل لونى أقعدهما عن البهجة .

وجدتنى أطالع صفـحة المرآة بتجرد - فى مـحاولة للتفسـيـر والتبرير - وكأنى أطـالع فيها وجهاً آخر غـير وجهى ، أو إنسانة أخرى غيرى ، عجوزاً

لا أعرفها .. راهبة زاهدة ، اختفت عنها ملامح الجمال والملاحة فجأة .. ووجدتني أتساءل :

- لماذا أكون أقل جمالاً !! طالما يمكنني أن أكون أكثر ؟؟ كيف والله جميل ، يحب الجمال ؟ كيف يأمرني أن أتقبح ؟! وأن أخفي مواطن الجمال فيّ على نضوبها ؟! لكن ما يصدمني ليس ما اعتراني من تغيير خارجي ، بل ما هالني هو التغيّر الداخلي الذي بدأ يطفح على السطح بوضوح تكاد العين أن تراه .

ما لي أرفض ما اعتراني ؟! رغم أني لست الوحيدة .. بل أنا واحدة من قطيع كبير أقبل على هذا التغيير ، وتحمس له ، وشجّعت كل منهن الأخرى ، وكأنها إحدى الموضات ، أو الصرعات التي تجري وراءها النساء دون وعي .

وجدتني أهب واقفة ، أنظر إلى ثوبي الفضفاض ، الذي لا يشف ، ولا يصف أي من ظلال التثني ، أو انحناءات الأنوثة ، فالشيء الوحيد الذي يميز الأنثى عن الرجل شكلاً هو الخط المنحني.. وحتى هذا قوّمت إنحناءه بملء إرادتي .. لماذا ؟! لا أدري !! أو لعلني أدري .. ولا أريد أن أعترف .

رحت أناقش المرأة الماثلة أمامي في قفص الاتهام الزجاجي العاكس .. أناقشها من طرف واحد .. وهي لا تجيب .. فقد ظلت تحملق فيّ بطرف كسير ، مستكينة بحكم ما يجللها من ثياب ، تكاد تخفي معالمها كامرأة ، وكإنسانة .. فأخذت أتحدث إليها في منولوج داخلي .. وهي تحملق ببلاهة، لا أعرف متى اكتسبتها .. ولا من أي شيء تستمدها ، فتفيض على قسماتها استسلاماً يائساً كريهاً .

قلت لها :

- لقد إستسلمت عن قناعة .. لكنها مفاجئة ، غطيت رأسي ، وكسوت جسدي - وإن لم يكن عارياً يوماً ما - وشعرت باعتزاز كبير بذاتي ، وبكوني امرأة .. وكأني شيء جميل ، أو تحفة ثمينة لابد أن تُصان عن العيون .

حياة جديدة لم أتعودها .. وأسلوب جديد لم آلفه .. فلم أكن يوماً ما سافرةً، أو متبرجةً بالمعنى الفاضح للكلمة.. إذ كانت أمي كثيراً ما تقول لي:

- عيب اقعدى عدل .. اقعدى كويس .. عيب لا ترفعى صوتك ، عيب تلبسى قصيراً .. عيبَ الناس تقول عليكِ إيه؟! عيب .. وعيب .. وعيب ..

لكنها أبداً لم تقل لى حرام .. وترسخت فى نفسى أفكار كثيرة عن العيب .. بالغت فيها بنفسى دون ضغط أو إكراه ، فأقلعت عن لبس «المايوه» ، ولم أحادث أحداً من زملائى فى الجامعة خارج الحرم .. ولم أخضع بالقول يوماً .. ولم أُجالس أحداً على « الكافتيريا » بل ولم أدخلها بالمرة طوال سنى الدراسة ، ولم أشارك فى رحلة جامعية واحدة .. كنت دائماً من البيت إلى الكلية ، ومن الكلية إلى البيت ، وتخرجت دون قصة حب واحدة .. بل ولم أُتح الفرصة لأحد أن يصارحنى بحبه .. فكلما استمعت لكلمة تحمل معنيين .. أتجاهلها وكأنى بلهاء ، وأهرب من صاحبها ، ليس لسبب إلا لكَمِّ العيب الذى وضعته سياجاً حولى ، وكأنى أرفع لافتة «ممنوع الاقتراب » .

ولم تتح لى فرصة أن أشعر أنى أنثى أو امرأة .. حتى حينما تزوجت ، ظللت - برغم الدنيا الجديدة التى دخلتها وعرفت الكثير من فنونها -

محتفظة بكمٍ هائل من براءة التفكير . لا أشعر أنى أنثى بالمعنى الحقيقى إلا مع شخص واحد ، ومن عداه لم أفكر فيهم بالمرة .. ولم أشعر أبداً أنهم قطب آخر موجب بالنسبة لسلبيتي الظاهرة أو المستترة ، وظل رأسي عارياً مكشوفاً بكل ما فيه من أفكار ، وبكل ما يكسوه من ليل .. وأبداً لم أخجل منه لا علناً ، ولا سراً .. فقد ظل رأسي نقياً ظاهره وباطنه .. ولكنى بعد أن بدأت حياتى الجديدة التي تصورت أنى سأحتفظ فيها أكثر بنقائي وبراءتي.. وجدتني أجلس لأتفرس الرجال ، وأترصد نظراتهم .. حتى مَن لم أرهم كرجال من قبل :

زوج أختي الذى تربى معنا ، وكان لنا أكثر من أخ .. وأبداً لم ينظر إلى أيّ منا ، فهو يحب زوجته ، واختارها دوننا ، وكنت لا أستحى منه .. أصبحت اليوم أتستر عليه ، وأخجل من نظراته - رغم براءته - أو يبدو أنى أخجل مما أفكر فيه ، فأنا أفكر فى أنه رجل .. وأنى امرأة .. وأنه مُحرّم على تحريماً مؤقتاً .. فكيف تعرت أفكارى إلى هذا الحد - رغم غطاء رأسى ؟؟

أخو زوجي يصغرنى بأعوام .. وقد دخلت عائلتهم كعضو جديد ، وهو بعد لم يبلغ .. لكنه اليوم فتى يافع ، ورجل لابد أن أحجب أمامه ، وأخشى نظراته - رغم أنه لا ينظر لى إلا كأخت أكبر .. كيف شطت أفكارى على هذا النحو ؟! برغم أن رأسى مُلجّم بخمار ثقيل ! !

ابن صديقتي كنت يوماً ما أُقعده على فخذيّ وأداعبه طفلاً .. اليوم هو بالنسبة لى رجل يجب ألا أقابله حاسرة الرأس .. لماذا أراه اليوم كقطب مختلف ؟! والأقطاب المختلفة تتجاذب ! ! كيف تتداعى الأفكار مكشوفة إلى رأسى المغطى ، حتى بت لا أرى الدنيا إلا من خلال الأقطاب المختلفة .

أصبحت أرى الحرام ، وأتمثله فى كل شىء .. ولا أرى فى حياتى اليومية - رغم تحفظها البادى - إلا المحرمات والممنوعات ، وتتداعى الخواطر الفجة إلى رأسى رغماً عنى ، ففزعى من أن يرى أحد شعر رأسى ، أو جزء من ذراعىّ ، أو ساقىّ - يجعلنى أقفز لألتقط خمارى لأستر به عوراتى - ليس رأسى فقط - فقد أصبحت كلى عورة .. حتى أفكارى .

كنت أتصور أن الحجاب سيزيدنى شفافية ، وأنه سيطهرنى أكثر ، ويبعدنى عن دنيا الدنايا التى لم أقربها من البدء أبداً ولو بتفكيرى .. لكنه على العكس لوث أفكارى .. فلم أعد أرى البشر إلا سالباً وموجباً .. قطبان مختلفان متجاذبان ، حتى كرهت أفكارى الحمراء التى تلهب رأسى، وتسوّد الأيام أمام ناظرى ، وتجعلنى أشك فى نفسى وفى الآخرين .

وقفت أمام المرآة .. أو أمام المرأة المنعكسة صورتها عليها ، فوجدتها تخلع خمارها .. إنها ليست جميلة ذلك الجمال الزاعق الذى يجذب أنظار الرجال ويلهب خيالهم أو يثير غرائزهم لأول وهلة .. فماذا لو عادت إلى عهدها السابق ، تراعى العيب ، ولا تفكر فى الحرام الذى دنس تفكيرها ؟! فقد كانت أفكارها محتشمة وهى سافرة ، ولم يزدها الحجاب إلا تكشفاً وافتضاحاً - وإن لم يره الآخرون - لكنها تحسه .. وإن لم ترفضه ، أما أنا فأرفضه ، وحسمت أمرى على رفعه عن رأسى وفكرى ، فلطالما ترددت فى خلعه ، وعلى مدى شهور ظللت أراود نفسى ، وكلما حاولت أشعر وكأنى عارية تماماً أمام نفسى ، فقد تضخم إحساسى بذاتى كأنثى ، وبت أستشعر الانحناء والاستدارة فى جسدى حتى فى الخطوط المستقيمة ، وتمثلت فى خيالى كل الرجال . من يجوز ومن لا يجوز ، المحرم والمحلل .

حقيقة كنت أستنكر خيالي وأرفضه .. لكن الأمر لا يمنع من أنى فكرت في ذلك .. استبعدت حدوثه وخجلت من نفسي .. لكنى تصورت - ولو للحظات - أنه أمر وارد الحدوث ، إذا ما تكشف لأحدهم جزء منى ، ولو كان خالياً من أى مسحة جمال .. لكنه على أى حال جزء من امرأة .. حتى لو كان أذنها ، أو عرقوب قدمها الجاف ، أو كوعاً مدبباً يعلو زنداً نحيفاً .

وكلما أمعنت في الطاعة ، والسير في الركب الذى بات يمثل الغالبية العظمى ، كلما بت أخجل من نفسي ، من جسدى ، من كل جزء فيه ، ومن تفكيرى وكل خلجة فيه ، حتى وجهى العابس المكتئب تعالت أصوات مغالية تقول إنه فتنة ، « وكل ما يُفتن عورة » ، فأين أدفن نفسي ؟ وكيف أحسم الصراع بداخلى ؟ ولصالح من أحسمه ؟ لصالح ما يراه الناس أم ما أراه بداخلى ؟!

وحينما رأيتها وهى حاسرة أكثر صدقاً معى ومع نفسها ، قررت أنه لابد من الخروج من هذه الدائرة المفرغة إلا من طنين أبله ، وحسمت الأمر أخيراً .. فالتجربة العملية هى الوسيلة للخروج مما أعانيه ، وعدت إلى ذاتى، وانطلقت أعدو السلم خارجة إلى الطريق حاسرة الرأس ، أرتدى ما يستر ما أراه عيباً أن يظهر .. وأنا أصارع بداخلى كل ما أشعر أنه حرام ، وأنه مما يفتن الأقطاب الأخرى ويحمّلهم أوزار الدنيا وذنوبها .. فهالنى أن أحداً منهم لم يلتفت ، وأحداً لم يشعر بمرورى ، ولم تزن أعينهم ، ولا أفتدتهم اللهفة، فانفرجت شفتاى بعد طول عبوس عن ابتسامة ، وأنا أتمتم :

- من يخشى الفتنة .. فليغض بصره !!○

تنويعات على حرف الميم

" إعاقـة من نوع خاص .. تعـانى منها نفـسياً .. لا جـسمانيـاً .. بتر بدون ألم .. لا تعـرف كنهـه !! ولا كيف تتفاداه ؟! حينما أدركته هربت من مـجـرد تصـور أنهـا فقدته " .

خرجت من عيادة الطبيب تجر أقدامـها جرا .. تنتفض من مجرد الظنون والشكوك ، والاحتـمالات .. ترتعد برغم سـريان حبات العـرق التى تجرى بطول ظهـرها ، وتتفصـد فوق جـبهتـها، وتزيد برودة كـفيهـا اللتين ازدادتا بياضاً مشوباً بزرقة خافتة .

عند أول جـدار رفعت ذراعـهـا ، لتسـتند برأسهـا ، فـيرتطم بالجـدار ، وانفـجرت باكـية .. رغم تماسكهـا الذى أبدته أمام الطبـيب ، ومحـاولتـها ابتلاع الغـصة التى وقفت فى حلقهـا ، فعاقت الألفاظ أن تخـرج ، وعاقت الأسئلة أن تتدافع على لسانها خارجة من بين شفتـيها ، معبرة عما تجيش به نفسها .

عمـرها الربيـعى لم يزد عن السابعـة عشـرة .. وهى بعد لم تدرك أنـها امرأة أو أنثـى .. فقد كـانت - ككل جيـلها - تميل إلى التـشبـه بالصبـية .. تلبس الـسـراويل ، ولا تحب الأثواب الضـيـقـة المرسـومـة بإحـكام على الأغصـان، تجمع شعـرها المنفلت إلى الخلف ، وتثبـت خصلاته الهـوجاء ، حتى لا تطيش إحداهـا لتغطى جبينها ، أو ترِف علـى وجنتيها أو رقبـتها .. وحتى أحذيتـها كانت من النوع الرياضى الضخم ، الذى لا يـتيح لخطواتها

أن تختال أو لعودها أن يتثنى .

أقبلت عليها أمها تربت كتفها ، وتحاول ضم رأسها الصغير إلى صدرها، فاستسلمت وأجهشت ببكاء مر ، مضغوم بكلمات أكثرها يضم حرف الميم بتشكيلاته وتنويعاته المختلفة ، التي ما لبثت أن ذابت بين دموعها وهمهماتها وأصوات أنفاسها اللاهثة دون تفريق .

- أمي .. ماما .. م .....

قالتها مصحوبة بتنهيدة حارة ، لفحت وجه الأم المبلل بالدموع أيضاً .. وجذبتها وهي تترنح، لتجلسها ، وتضم وجهها بين راحتيها ، ناظرة إلى العينين الجميلتين اللتين هربت من نظراتهما طويلاً ، خوفاً من هذه اللحظة ، التي كانت تتوجس منها وترفضها بقدر ما تتوقعها .

- قُطفَت الوردة قبل أن تتفتح ، فاجأتها ريح عاتية ، أسقطت أوراقها ، وأوقفتها ميسم تذر الرياح ما عليه من حب .. دون أن يطالها طلع ، أو تنبت إلى جوارها براعم .. برز الشوك وكأن وخزه يتجه إلى عودها الغض قبل أن تُقطَف .

نظرت من بين سيل دموعها المنهمرة ، وحملقت في لا شيء ، فكل الرؤى أمامها مهتزة إلى حد الاهتراء والتفسخ .. لم يعد أمام ناظريها شيء متماسك .. الأجسام متعرجة كأنها أمام مرآة رديئة الصنع أو مبللة ، والوجوه مسوخ كأنها تطل من خلال عدسة محدبة ، حتى الأرض اتسعت الشقوق بين بلاطها ، وكأنها ستبتلعها .. قامت لتسير ، فلم تتمالك خطواتها ، خافت أن تخطو فتنهار الجدران المتمايلة من حولها .. ومادت الأرض من تحت قدميها ، وسقطت مغشياً عليها ، هرباً من هول ما سمعت

.. رغم أنها لم تكن تدرك قبل لحظات أن له هذه الأهمية .

لم تكن تعلم بعد معنى أن تكون أماً أو لا تكون .. فلم تمارس هذا الشعور المحبب إلا طفلة مع دمينها الصغيرة، وحيواناتها الإسفنجية الناعمة، التى كانت تبادلها حباً بحب وهمى ، تلتمس منها الدفء والنعومة، وتملأ بها فراشها ، لتحتل منه أكثر مما تحتل بقوامها الفارع ، وقدها المكتنز الغض .

لم تكن تعلم شيئاً عن عالم الأمومة - هذا العالم الناضح بالحنو والعواطف - إلا من خلال لمسات أمها ، وإن كانت كثيراً ما تتملص من بين ذراعيها بقدر ما تشتاق إليهما .. لم تكن تعرف كُنْه هذه اللمسات السحرية إلا وهى مريضة ... إذ كانت تشعر بسريان العافية فى جسدها، وذهاب الحمى عنها لمجرد لمس هذه الأنامل الرقيقة الباردة لجبينها الملتهب ، أو لمجرد تربيت هذا الكف النحيف الحانى على وجنتها ، وتحسسه لها .. فتشعر بالنقاهة تسرى فى أوصالها وعروقها ، فلا هى متألمة تماماً ، ولا هى معافاة تماماً .. بل هى تشعر بخروج الألم من أطرافها ، وانسحابه لتحل محله بشائر عافية واهنة لم تكتمل بعد .. شعور من الخدر الجميل السارى فى كل مفصل، وكل عضلة .. بل وكل خلجة .. شعور من العافية تصنعه لمسات الأم السحرية .

لم تكن حتى اليوم تعلم المعنى الحقيقى للأمومة إلا من خلال الحاجة إلى أمها ، لتُسرى إليها بمشاعر المرارة الساذجة التى تستشعرها من جحود إحدى الصديقات ، أو ضيق من أى عارض يلم بها ، فتجرى مهرولة ، لتفضى وتبوح ، فترتاح لمجرد القول والبوح .

- هى ذى إذن الأمومة والبنوة فى مشاعر متبادلة .. عطاء دائم باللمسة والكلمة ..

تعودت على الأخذ منه والاعتراف بنهم ولم تتصور يوماً أن عليها أن تعطى ، أو أنها تحب أن تعطى ، ولم يخطر ببالها يوماً أنها حريصة على هذا العطاء من جانبها .. ولم تفكر فى أن قدرتها على العطاء كامنة ، أو متوارية ومنزوية تتوق للتدفق .. منتظرة من تفيض عليهم .. لم يخطر ببالها قط أنها تهتم بأن تكون أماً ، ولم تتخيل نفسها يوماً تحمل وليداً ، أو تتحمل مسئولية طفل .. حتى فى أحلى صور هذه المشاعر .. أو فى أدناها من أساليب الخدمة الشاقة لطفل ينمو ويكبر .. ويمرض ويبكى ، ويقض مضجعها ليلاً ويجعلها تشقى بخدمته نهاراً .. وتقلق وتسهر وتستمتع بهذا التعب اللذيذ.. لم تر نفسها أبداً فى أى من هذه الصور ، ولم تتخيل أن لديها طاقة عطاء، يمكن أن تمنح هذه الصور ظلالاً تحددها وتؤكد ملامحها .. لكنها اليوم رأت نفسها فى مرآة جديدة تماماً .. نظرت فيها فلم تعرف ملامحها ، وكأنها ليست هى نفسها .

- يبدو أن المشكلة ليست فى ملامحنا الخارجية .. المشكلة فى صورة ملامحنا النفسية من الداخل .

وفى لحظات تداعت إلى خاطرها التساؤلات :

- هل هذا بالفعل قلبى ؟! وهل هذه هى مشاعرى الحقة ؟ هل كل هذا الشجن يسكننى ، وكل هذا الأسى يتحرك بداخلى ؟! ويدفع مآقىّ لتفيض بسيل من الدموع ، أسكبها على شىء لم أمتلكه بعد ، لأشعر بفقدانه ؟! أم تراه الشعور بالعجز والإعاقة هو الذى يُحرِّك فىَّ كل هذه المشاعر فجأة ؟!

راحت تتلمس أعضاءها جميعاً ، كلها سليمة .. كلها تفرز عافية ، وتتوثب صحة .. وراحت تتأمل كل جزء ، وتتخيل لو فقدته !! وكيف يمكن أن يُعوَّض ؟! ولكن ما تفتقده الآن - أو ما أخبرها الطبيب الآن أنها تفتقده - شيء غير ملموس ولا محسوس ، ولا يُرى بالعين المجردة ، ليتم تعويضه أو تركيب بديل له .. إنه سائل زئبقي يهرب ويجرى ، ويسرى ويقفز عبر جسدها كنقطة تسير فى نهر ، تطفو وكأنها تلهو .. تعلو وتهبط ، ولا يمكن الإمساك بها .. إفراز هلامي يتشكل ويتثنى كما يحلو له .. يتسطح ويتكور ويتدحرج وسط سوائل أخرى يذوب فيها ، ثم ينفصل عنها، يتكوم ثم يتداح ، نسميه ونتكلم عنه ، ونحلله أحياناً .. لكننا لا نراه رؤية العين، ولا نسيطر عليه ولا نستعوضه إذا فُقِد ولا نعوضه إذا قل ..

إعاقة من نوع خاص .. نعانى منها نفسياً لا جسمانياً .. بتر بدون ألم .. لا نعرف كنهه !! ولا كيف نتفاداه ؟؟ حينما أدركته هربت من مجرد تصور أنها فقدته .

مر وقت طويل على هروبها أو غشيتها .. لم تدر امتداده البرزخى .. فقط شعرت فجأة بهمس - قبل أن تستطيع أن تفتح عينيها - وتشممت رائحة نفاذة أيقظتها ، وصوت هامس لم تتبين ما يقول ، فقد أفاقتها المنبهات ، لتطالع وجوهاً لا تعرفها ، فأشاحت عنها تبحث عن أمها بين الوجوه الملتفة حولها ، والمحملقة بحياد تام فى وجهها. لم تفرق بين هذه السحن ، رأتها وكأنها وجه واحد مكرر عدة مرات فى مرآة منبعجة .

ما كل هذا المسخ الذى يحيط بها .. الدنيا كلها مسوخ ، واللمسات التى تستشعرها لم تجد بينها اللمسة التى تبحث عنها ، والتى اعتادت أن تبحث

عنها كلما ألم بها شيء .

حملقت في سقف الغرفة المتسع كأنه سماء من حجر . قاسية صماء ، خالية حتى من بصيص نور أو سحابة محدودبة الحنو .. حملقت في لا شيء .. وراحت تتحسس جسدها وكأنها تتعرف عليه لأول مرة ، وتتأكد أنه لم ينقص عضواً ، وأنه سليم تماماً .. ولا يتألم .. فقط ينبعث الألم الحارق من داخلها .. من مكان لا تستطيع تحديده .. لعله قادم من نفسها التي ليس لها موضع ملموس .. نفسها التي تكاد أن تتعرف عليها اليوم لأول مرة .. وتواجهها وكأنها ليست منها ، وليست هي .. وتكتشف فيها أشياء جديدة لم تكن لتعرفها لولا ما حدث ! !

جالت ببصرها تبحث عن أمها مرة أخرى .. لكنها لم تستطع أن تتفوه بأحرف الميم التي اعتادت أن تعزف تنويعات على أوتارها ، منادية أو مناغية لأمها ..

أخيراً تمتمت على استحياء منادية أمها .. وكأنها تناديها لأول مرة .. قالت : أمي برنين تكرر صداه بداخلها ، فاستشعرت لتكرار حرف الميم بالذات رنيناً خاصاً محبباً .. هو أول ما ينطقه الوليد .. استشعرته اليوم بالذات بشكل مختلف بعد أن صارحها الطبيب بمرضها الذى لن يتيح لها أن تسمع هذا النداء أبداً ! ! ○

أشياء صغيرة

" أرادت أن تضع يدها على بداية التحول ، والتبدل فى مشاعرها ، وأسبابه ، علها تفسر ما آلت إليه أحاسيسها فى مشوار عودتها ".

أن ترى الأشـياء من بعـيد أجمل من أن تغوص فيـها ، فتتحسس ما في الخضار من عفن .. وما في البياض من لزوجة .. وما في السواد من عتمة .. وما في الملمس الناعم من انزلاق يُفض إلى الهـلاك .. أدركت ذلك متأخرة - بل متأخرة جـداً - وهي عائدة من نفس الطريق ، ممتطية قطار الحلم الذي حـملها إلى الفـردوس قـبل أعـوام قليلة ، ينهب الأرض نهـباً ، ويغـربل جسـدها المكتنز ، لينفض عنه عناء السنون ، وتفرز هي مع اهتزاز رأسها كل ما علاه من صور إتضحت لها معالمها ، وتفاصيلها الدقيقة بالمعايشة .

الصورة هي نفسها تتكرر وترمح مع سرعـة القطار ، مسطحات مقسمة من خـضـرة ، يخططهـا السواد المشـرّب بلون البن المحـروق ، تراه من علٍ فتتمنى أن ترمح ، وتطلق ساقـيك للريح عليه ، أو تسـتلقى على ظهرك فوق هذا البسـاط الأخضر ، فـلا ترى إلا قبة سـماوية تنضـضها ندف السـحاب الأبيض المتشكلة .. ولا تشعر إلا بنداوة الخضرة من حولك دون أن تراها .

أناس بسطاء مـسترخين فـي ظلال أشجار مـتناثرة ، متكئين عـلى أكوام صـفـراء من الحنطة ، أو سـاعين في عـمل بطيء تـتـفق مـوسـيقى حـركـة أجسـادهم في رتمها الهادىء المتراخي مع السكون المسمـوع من حولهم ..

فالصمت دامس .. إلا من نقيق ضفدع ، أو صـوت عصفور يقفز من غصن إلى غصن .

هبطت يومـاً لتدخل هذه اللوحة الطبيعـية ، كمـا دخلت « أليس » بلاد العجائب مبهورة بكل شيء من حولها .. حتى السكون النقيض لواقع الحياة فى المدينـة المزدحـمـة ، التى أتت منـهـا مـحـاولةً أن تتـأبط ذراع بطلهـا الأسطورى، كى لا تستـشعر الوحـشة والغربـة عن جغرافـية المكان .. لكنه أزاح ذراعهـا المتعلق بذراعه مربـتاً عليه ، متـمتمـاً فى أذنها بأن « الناس هنا مخـتلفون .. جـد مخـتلفون » .. وقد أيقـنت ذلك مؤخراً .. برغـم أنها لم تستشـعره فى البداية - اعتمـاداً على استدلال عقلى ثبت خطأه فيـما بعد - فحـبيبـها من هذه التربة ، وهو جـزء من هذه الجبلة .. ومع ذلك هى تحـبه ، وترى أنه النصف الذى طالما تاقت أن تلتصق به ، كى تكتمل .

وعادت أدراجهـا إلى الوراء تستعيـد ذكرى العرس .. وهو واقف وسط الحفل ، أشـبه بقـرد وسيم يرتدى صـديرية ملونة ، وسـترة سوداء لامـعة .. يتمايل الشـباب من حوله ، ويلونون فى حركـات رقصهـم ، وهو ثابت على حركـة واحدة مكررة .. من أسـفل إلى أعلى كـقرد لا يجيـد التقلـيد ، ولـم يتـدرب عليـه ، فقـد سـحبتـه من يده ، من فـوق مـقعـده فى « الكوشـة » فاستـجاب لإلحاحهـا ، وقام مُنقاداً لحبه ، مـدفوعاً ومبهـوراً بصخب المكان الملون بالثيـاب الغالية البـراقة ، ليمثّل مـعها الدور المطلوب منه كـعريس .. رغم أن تاريخ معـرفـته بالأفراح لم يكن مـدوناً به أن ترقص العروس .. بل تتصدر المجلس فى أبهى زينتها .. سيدة المكان وملكته ، لترقص لها الصبايا، ويلتففن حولها ، وهى ساكنة مبتسمة فى أناة ، لا تنفرج أساريرها أو شفتاها

لتنم عن سعادتها .. لا بل فقط تترك الفرحة الخجول تقفز من عينيها أو تكاد .. لكنه دُهِش لجرأة عروسه التى تعلن عن فرحتها بالرقص والغناء ، ومشاركة المدعوين فرحتهم ، لأنها صاحبة الفرح أصلاً

لم تكن تدرك الصورة بهذا الشكل إلا فيما بعد ، حينما جلسا معاً ، بعد أيام من الزفاف ، ليشاهدا الفيلم المسجل للحفل ، فخجل هو من نفسه أشد الخجل ، وخجلت هى مشاركة له .. ولاحظت من مشاهد الفيلم أمراً لم تره ليلة العرس ، ولم تلحظه بالمرة : فأمه وأبوه وشقيقاته كانوا قد إتخذوا طاولة منزوية فى ركن قصى مظلم ، متسترين بالإضاءة الخافتة ، مدارين للجلباب البلدى الذى يرتديه الأب ، و« اللاسة » التى يتلفع بها ، و«البالطو» البنى الكالح و« الإيشارب » اللذين إرتدتهما أمه ، والملابس الفولكلورية التى كانت شقيقاته ترتدينها ، ولعنت فى سرها آلة التصوير التى تستطيع أن تقبض على اللحظة الحرجة ، لتثبّتها وتجعلنا نستعيدها ، ونتأملها ، ونستشعر الدونية فيها آلاف المرات ، وشعرت بحرجه فلم تعد تدير هذا الشريط مرة أخرى ، بدافع من حبها له ، وكى لا تسمح لمشاعر الحرج ، والندم ، وخليط من أحاسيس أخرى لا تستطيع أن تتبينها ، أن تتسلل لتستقر فى أعماقها .

لم تكن تستشعر فى البداية نفوراً من تصرفاته ، فقط كانت تدهش من غرابتها ، مرددة في نفسها أنها لابد ستقوده إلى التغيّر بمرور الزمن ، كما استطاعت أن تقوده إلى حلبة الرقص ، ليهتز بداخلها كبندول أبله ، والراقصة تحاول أن تقنعه بالتحرر من خجله بوضع يده على بطنها المرتعش، وهو خجل من كل طقوس الفرح المدنية التى لم يتعود حتى رؤيتها ، وليس

المشاركة فيها ، فقد كان ظنه أن خطبة ابنة مدير الأمن فى محافظته مجرد خطوة ستنقله إلى مصاف علية القوم .. رغم أنه فى بلدته منهم .. بل وابن سيدهم ثراءً ، وهو أيضاً منهم ، لأنه - وهو ابن القرية - قد تعلم ، وتخرج، وتقلد منصباً كبيراً فى بلده ، وكان فرحاً فقط لأنه قد ناسب رمز الحكومة ، وعروسه أيضاً كانت فرحة به ، وبولهه وطواعيته لها ، وانقياده للتعلق بتصرفات طبقتها ، وانبهاره بسلوك هذه الطبقة .

عادت من سرحتها الطويلة ، وصورها المتنافرة ، وعاودت النظر إلى اللوحة الهاربة من زجاج نافذة القطار العائد بها من حيث أتت .. لكنها لم تشعر بجمالها الذى أحسته فى رحلة السفر .. فلا الأوز وطيور الأرض البيضاء تذكرها بالنورس ، ولا النخيل الباسق المتمايل يذكرها بعناق الأحبة، ولم تعد ترى من حيوانات الأرض الوديعة إلا ما تحتها من روث ، وما على عيونها من ذباب .. وحتى ألوان الفرح الفاقعة التى ترتديها النساء والأطفال لم تعد تبهجها كما كانت ، ولم تعد تراها كثمار وزهور فوق الأرض الخضراء الشاسعة ، وساءلت نفسها : لما كل هذا التحول الدائرى الكامل فى رؤياها للوحة نفسها ؟! ومن خلال نفس المربع الزجاجى المؤطر بإحكام ليمنع نفاذ الغبار ، ورائحة الأرض والتراب ؟! فقد كانت ترى المنظر دائماً من وراء زجاج حاجز فى سفراتها القليلة السابقة ، لزيارة أبيها .. لكنها لم تتريث ، وقفزت فجأة؛ لتكون وسط الصورة، وجزءً منها .

تمتمت بصوت شبه مسموع :

- يبدو أن تبدل المشاعر يبدد رؤيانا للأمور ، والشخوص .. وحتى للطبيعة الصامتة الخرساء.

أرادت أن تضع يدها على بداية التحول والتبدل في مشاعرها ، وأسبابه، علها تفسر ما آلت إليه أحاسيسها في مشوار عودتها .

تذكرت مـا قرأته يوماً « لفرنسـواز ساجان » عن تبدل المشـاعر ، وبداية إدراك البطل لفتور عـاطفة الحب في قلبه ، حينما « اشمـأزت نفسه من خط من ماء شـفاف يبلل أسـفل أنف حبيبتـه ، ودبوس تشبك به طرف حـمالة صديريتهـا الداخليـة المتسخة » رغم أن هذه الأمـور لم تكن تشغل فكره .. أو حتى تـلفت نظره ، فتـرة تأجج العواطف .. فـقد كان قـبلاً يسـتعـذبها ، ويراها عفوية محببة .

عادت لنفسها لتقبض على اللحظة التي شـعرت فيها أنه يتصرف وكأنه يتعمد أن يُنفِّرها منه .. فلم تعد تطيق رائحة عـرقه ، التي كانت محببة ، ولا أنفاسـه المختلطة برائحة دخـان حام ، وشاي ثقـيل .. برغم أنها كانت قـبلاً تميزه بها ، وتستشعر فيها رجولته .

تذكرت كم لفـتت نظره برفق إلى أن طريقة أكله تجـعل أصابعـه المشرَّبة بالدهن الأحـمر تصيـبهـا بزهد في الطعام ، وأن تجـفيف العـرق المترِّب في مناشف الوجه تجـبرها على عدم استعـمالها مرة أخرى مـن بعده ، وتفصل بين امتـزاجهـما التـام .. وأن أسنانه الموزعة ألوانهـا بين الصفـرة والسـواد ، تجعل ابتسامته مصدر تضاؤل لها أمام الأهل والأصدقاء .

أشياء صغيرة بات يرفض الانصياع لتغـييرها .. رغم أنها لن تكلفه شيئاً سوى التـحول للأفضل .. لكنـه يؤكد لها أنهـا جزء من شخـصيتـه ، وأنها أمور عادية يمارسها الجميع داخل اللوحة الجميلة التي انبهرت بها من بعيد ،

فلما دخلتها أرادت أن تبدل خطوطها ، وتغيّر ألوانها ، وتحرك جماداتها وشخوصها ، وكأنها تريد أن تغسلها بماء حار فتزيلها .

أشياء صغيرة جداً .. لكنها لا تستطيع التعايش معها وترفضها .. وإن استمرت لسنوات تحاول تقبّلها ، أو تغييرها دون جدوى ، فاستسلمت يأساً.. لكنها اليوم رأته يتمخط ثم يبول ، ويبصق من خلف ظهره .. وينطلق حافي القدمين على بلاط المرحاض قافزاً إلى جوارها على الفراش .. فانسلت من جانبه عند الفجر ، تجمع ثيابها .. بعد أن حزمت أمرها على الرحيل ، بسبب تصرف يراه عادياً .. واستقلت القطار ، بعد أن تأملت جزءاً من اللوحة من بين دموع ساخنة ، لترى تفاصيلها الجميلة بعيون غسلتها الدموع ، فمحت ما عليها من غشاوة جعلتها تحزم أمرها أن تكون رحلة عودة بلا رجعة . ○

حصانى الجامح

" من طرف عـيـونى المغـــرورقـة
بالدموع لمحـتهـا تخـفى ابتسـامة
إعـجـاب ممزوج بالدهـشـة ....
وربما كانت تلك البـسمة المعجـبة
هى التى تـطلق لجـامـه دائمـاً ،
وتترك له العنان " .

تركت له العنان ، وأطلقته يصول ويجول فلماذا أُلجمه وقد كبحت جماحه لسنوات بل لعقود ، بعد أن جلب لى جموحه ما لا يطيقه جسدى النحيل .. إذ انسحب دوناً عنى يوماً ، ليسأل الجدة العجوز فى براءة ماكرة .. أو مكر يدعى البراءة :

- هل ولدت عجوزاً هكذا يا جدتى ؟!

خاطر حائر ألح عليّ .. كبتُّه فى نفسى طويلاً.. ثم حركته لحظة ميلاد أختى الصغرى.. إذ رأيت أجيالاً ثلاثة، فلم يستطع عقلى الصغير- آنذاك - استيعاب الفكرة .. وحتى عيناى لم تصدقا ما ترياه : أهكذا نولد صغاراً . ثم نكبر ؟! أمن المعقول أن جدتى العجوز بكل تجاعيد وجهها وعروق يديها النافرة كانت يوماً ما وليدة ناعمة الملمس والأطراف ؟! أنا لا أصدق.. فلماذا لا أسأل ؟

خفت من مجرد السؤال ، وجبنت عنه .. لكنه انطلق على الرغم منى ، فجلب لى سيلاً من السباب ، ونظرة غاضبة وكأنها سياط من نار ، ورداً ألجمنى

- « البنت دى مسحوبة من لسانها ده سؤال تسأله عيِّلة ؟! »

وهمت جدتي لتقرص أعلى زندي ، لتترك أصابعها بقعتين زرقاوين على ذراعي ، وتملصت بصعوبة من بين يديها .. لأنكمش في ركن الغرفة ، أرمق أمي من بين دموعي الغزيرة المدرار .. وهي تبرر سؤالي ، وتحاول الدفاع عني قائلة : « إنها لا تقصد .. إنها صغيرة لا تعي ما تقول »

ومن طرف عيوني المغرورقة بالدموع لمحتها تخفي ابتسامة إعجاب ممزوج بالدهشة .

والتصقت بي هذه الصفة التي أطلقتها جدتي : « مسحوبة من لسانها » ، وربما كانت تلك البسمة المعجبة هي التي تطلق لجامه دائماً ، وتترك له العنان.

وبعد أن كانت أمي تثني على ذكائي ، وإجاباتي الخالصة الحاضرة دوماً.. أصبحت أول المُتشاكين من ردودي المُفْحِمة لها .. أو كما كانت تسميها : « الرد الخالص » وتطور الحال بها إلى محاولة إسكاتي عنوة كُلما هممت بالرد عليها .. بل أصبحت ترفض أن أناطقها قولاً بقول .. فقد كنت ومازلت أكره الظلم .. بل أمقته ولا أرضاه .. وينطلق لساني يدافع ويرغي ويزبد دفاعاً عني - وعن غيري - غير مدرك أنه يزيد من اضطهادهم لي .. لكني لا أملك حياله شيئاً ! فهو يكر ويفر بالرغم مني ، مؤمناً بحقي وحقه في القول .. ولو كان جموحاً .

وشاب على ما شب عليه .. لا يسكت على أمر لا يعجبه ، ويتمرد على كل قيد .. وينقد كل شيء .. حتى كاد يفقدني كل من أحب .. وكلما حاولت تلجيمه حتى لا يفصح ويواجه الناس بعيوبهم أذعن للحظات .. ثم ما يلبث أن ينطلق في السر أو في العلن .. يثرثر ويسخر .. وكم

أوقعنى فى مواقف لا أحسد عليها من جراء قفزاته الرعناء .

جالت بخاطرى هذه الأفكار .. وأنا أمسك بفكى المتعب من الحديث .. فيما يشبه «الانفصال الحنكى » - وإن كان هذا المرض لم يُكتشف بعد - لكنى شعرت به أكثر بآلاف المرات مما استشعرته من قبل - فقد كنت أظل أحكى وأحكى بالساعات لزوج مصاب « بالبكم الزوجى » - وهو مرض آخر أُصبت به فى شخص رفيقى فى هذه الدنيا - أقص عليه قصة من الشرق ، وأخرى من الغرب .. أحدثه عن أيام الطفولة ، والصبا، والشباب.. وعن رؤيتى للأمور ، وكل أمر يمر بنا معاً له فى جعبتى حكايا ، وطرائف لا نهاية لها ، وهو ينصت نصف مغمض العينين إلى أن يغفو بين يدى .. فأوقف لسانى عن الحديث عنوة .. حانقة ، وأثور أحياناً لإغفائه رغم طرافة ما أحكى .. أثير غيرته مستشهدة بقول أحدهم إنى : « شهرزاد » ، وأن «حديثى لا يُمَل » .. فيثور للحظات لاعناً من قال هذه الشهادة الزور .. ثم ما يلبث أن يغفو مرة أخرى تاركاً إياى أجر أطراف الحديث وحدى .

مؤخراً أدركت أنى خُلقت لأقود « مَكْلَمَة » آخذ موقع الصدارة منها ، ويصول فيها حصانى ويجول ، ويقول .. ويصهل ويصهلل فى ليال من الأنس تغترف ، وعلى همس الوساد تغفو .. ولكن أنَّى لى هذا الحلم ! !

ظللت أربيه وأغذيه بكل جديد وعجيب وغريب .. دون أن أعرف لماذا ألقمه كل هذا السكر .. ودون وعى منى أدركت اليوم - واليوم فقط - جدوى ما أطعمته وسقيته .. فقد انطلق على سجيته على مدى ثلاث ساعات متصلة يجرى - أو يجرى عليه الكلام - منمقاً مدروساً فى حديث

طلىّ ، تحيط به عيون محملقة نهمة مستزيدة .

اليوم فقط - أول أيام عملى الجديد - أدركت أن حصانى الجامح قد وصل إلى بداية المضمار ، وأول السباق .. وانطلق ليكسب جولة بعد جولة.. وَوُظِّف لما هُيء له .. وأدركت أن كل ما سبق كان مجرد شرود أهوج عن المضمار .

أمسكت فكى المفصول عن شقيقه ، وانسحبت يدى تتحسس حنجرتى المتألمة ، وتضغط عليها من الخارج وأنها تربت عليها .. ماذا فعلت بنفسى؟! وماذا سأفعل فيما يلى من أيام ؟! وقد بُح صوتى من أول محاضرة .. لكنها خطوات تعدو خلفى لتقف إلى جوارى تهنئنى ، وتثنى على قدرتى على الشرح والإيضاح ، أذهبت عنى وعن حصانى الجامح عناء الجولة الأولى .. وكأنها تربت على رقبته وتلقمه قطعة سكر مكافأة له على السبق ، فوجدتنى أهز رأسى شاكرة فتسقط غرتى على جبينى المبلل بالعرق .. وأتنحنح فيخرج الصوت من بين شفتى وكأنه صهيل جواد عربى أصيل . وآهة نشوانة بالنصر ، وانطلاقة إلى جولة أخرى . ○

صفيري .. لا تأتِ هذه الأرض

" بعثرت أيامي في مخيلتي ..
رحت أرقب داخلي بتحسُّر على
أيام مضت .. خرجت إلى الطريق
أبحث عن جديد .. هذه الأرض
بمن عليها شيء جديد عليّ ..
لكني لا أستشعر ذلك .. " .

ذلك المكتب يقتـل فيَّ أشـيـاء كـثيـرة .. كـان حلمـاً أن أترك أرضى وأرحل.. أرحل إلى أى من بقاع الأرض التى سـمعت عنها .. عن أمـوالها المتدفقة كمـاء الطلمبة العتيقة التى وعت أقـدامى على دفق مياهها .. وطالما نثرناها على وجوهنا فيما يسمونه عـداوة .. حقيقة كانت أم مجرد كلام ؟! « رش الماء عـداوة » .. رجع ذهنى إلى هذه الطلمـبـة الدفاقـة .. يوم تحـقق حلمى الصغير ، الذى كبر مع الأيام واستفحـل فى داخـلى وجعـلنى أسب أرضى .. أمقتها .. أريد تركها بأى حال .. وإلى أى أرض .

صغار كنا نهرع إلى حجرة الجلوس فور انصراف ضيوف أبى لنفرغ فى حلوقنا المتـعطشة بقـايا الزجاجـات التى تجرعـوها .. حلماً كـان أن نشرب زجاجة كـاملة .. ويوم تحقـق لنا أن نشربهـا كاملة كنا نستعـرض أنفسنا فى الشرفات .. كى نُشبِع مـا بداخلنا من عطش ومن رغبة فى أن نرى أنفسنا ، ويرانا الناس ونحن نستحلف الزجاجة ألاَّ تنتهى .

صارت الـزجاجات الفـارغة من حـولى كثيرة .. ومـا سكبتـه بداخلى أكثر.. ولكن لا معنى له .. لا قيمة له .

رفعت بكسل السـماعـة ، كى أؤكد موعـد استلام مـلابسى الجديدة ..

أنظر فى الساعة كثيراً .. تلك التى علقت أيامى عليها ، وتركتها تسير ، حتى هذه أيضاً بتُّ لا ابذل جهـداً فى ملئهـا، تسير رغماً عنى .. أكرهها أحياناً.. أريد ساعة أتحكم فيها .. أتركها تتوقف .. تحتاج إلىَّ .. أملؤها متى أردت .. صرت أمقُتهـا ، لأنها مثلى تتحرك آلياً .. مسكينة هذه الساعـة افتقدت حتى إلى زنبرك يحـركهـا .. يدفـع فـيها إحـساساً جـديداً بالامتـلاء التام .. كى تشعـر بالفراغ بعده .. وتحـتاج .. فتُـملأ ، لا معنى لأن يكون الإنسـان دائماً ملآناً ، لابد من أوقات يحتاج فيها إلى شىء، ويفرغ فيها إلى نفسه .

أنتـزع نفسى مـن خلف المكتب القـاتل .. والدائب فى قـتلى يومـاً بعـد يوم.. أخرج لاستلام الملابس الجديدة .

أذكر فى الطريق فرحتى بثوب جديد ، جعلتنى لا أنام ليلة كاملة ، فرشته إلى جوارى ووضـعت معه جورباً جـديداً أبيض .. أقصى جهـدى بذلته فى مسح الحذاء ، وجعلته أكثر لمعاناً من مرآة .. شريط شعرى لم يكن جديداً .. ذلك فقط ما كان يضايقنى ، وتحايلت عـليه بأن بللت الشريط ووضعته تحت رأسى الصغير آنذاك .. وبت أفكر فى الجديد ، وفـيما سيكون كالجديد تحت رأسى .. ليلتها كانت فرحتى لا تعادلها فرحة .

تسلمت الأثواب الجديدة ، فـرشتهـا كما كنت أفـعل طفلة .. بحثت فى أعمـاقى عن تلك المشاعر ، عـبثاً لـم أجدها .. ونظرة أخرى لما كـان جديداً بالأمس ، وأمس الأول .. لا معنى له فـى عينى .. كانت الملابس قـبلاً أظـل أرتديهـا سنوات ثلاث ، أو أربع بنفس الشعور بالجدة .. فمالى أملُّ أرديتى بهذه السرعة ؟! مالى أفتقد مشاعر الزهو والاختيال على أرضى ؟!

بعثـرت أيامى فى مـخيلتى .. رحت أرقب داخلى بتـحسُّـر على أيام

مضت.. خرجت إلى الطريق أبحث عن جديد .. هذه الأرض بمن عليها شيء جديد عليّ ، لكنى لا أستشعر ذلك .. نفسى تحدثنى بأنها غربية عنى .. غربة قاتلة تتحرك بداخلى .. لحظات لو ملكت الحسم فيها لعدت أدراجى إلى أرض كنت أتمنى تركها .. رحت أحملق فى وجوه الأطفال على الطريق .. عليها بلادة .. مساكين هؤلاء ، كل شيء محقق لهم ، يلبسون الجديد دون أن يشعروا به .. حلوى فى أفواههم لا يشتاقون إليها .. مساكين هؤلاء لا يتمنون شيئاً إلا وجدوه .

رحت أهرب من تلك الوجوه البليدة .. لا أريد أن يكون أبنائى كهؤلاء.. أريد أطفالاً يشعرون بالجديد .. يسيل لعابهم للحلوى فى واجهات الحوانيت .. وفى أيدى غيرهم من الأطفال - هذه المشاعر تصنعهم - ليس عيباً أن يأملوا فى شيء لن يتحقق ، لا أريد أن يتحقق لهم كل ما يريدون .. سيحطمهم ذلك ..

آه لو عاشوا يحلمون حتى النهاية !!

أتمنى لو أدمر هذا الذى اعتلانى .. لا أريد له أن ينزل بهذه الأرض .. سيصدأ إذا ما لفظتُه على هذه الأرض .. سيصدأ ككل شيء حولى ، وكما علا الصدأ أفكارى .. أريده أن يكون هناك حتى تتاح له فرصة أن يتألم ، ويحتاج ، ويتمنى ويحقق .. أو لا يحقق ، كى يشعر ويعيش .

عبء ذلك الذى أحمله .. وأخاف أن أقذف به فى وجه الأرض اللينة .

عبء ذلك الذى أحمله .. أريد له أرضاً أكثر صلابة ، وعالماً يمكنه فيه أن يتذوق الألم .. ويعرف الآمال بعيدة التحقيق .. أخاف عليه من تفكيرى

فيه .. من اضطرارى لأن أحقق له كل مطالبه .. أخاف عليه من وجوده على هذه الأرض .

ألا يكفـينى أن أفكر كـيف سيكون ؟! كـمن سـيصيـر ؟! يقلقنى ذلك الحبيب اللعين .

ألم يجـتاحنى .. يقـتلعنى من خلف المكتب الذى صُلبت عليـه فى هذه الأرض.. ألـم لـم أعرفه من قبل ، ولا تخيلته موجوداً !!

أجـدنى مضطرة أن ألـفظه على هذه الأرض !! لا أمـتلك أن أختـار له دنياه .. مُقدَّر له أن يأتى الآن وفى هذا المكان .

مـاذا لو انتظر .. لو تمهل !! لا أحـد يتمـهل فى هذا العـالم !! الجمـيع متعجلون !! حتـى الألـم بداخلى طفح .. على كل شىء حولى .. ما عدت أستطيع التفكير .. فليأت أينما يأتى .. لم أعد أتحمل الألـم .

سأخلق له .. لا .. لا حتى هذا لا أستطيعه .. لن أختار له شيئاً .. سأفكر حالما ينتـهى الألـم .. أو ربما لا أفكر .. قد أنشغل من جـديد .. لا يسعنى إلا أن أستقبله الآن على الأرض الـ... التى ...

أى أرض ! فقط فليأت !○

واسطتك مين؟؟!

" لم أعرف مصيرى ، ولم أعرف طريقى إليه ، فدرست القانون ، ولا أعرف الآن كيف أمارسه فى الفراش أو فى المطبخ !! " .

لو كنت أعلم أني لن أحتاج في حبه إلا لفن العشق ، وفن الطهو لما أتقنت غيرهما .. ولما أضعت سنوات العمر الغض أخلع مقلتيّ على صفحات الكتب .. وأجرى وراء أحرفها كي أحفرها على تجاعيد عقلي .. ولاحتفظت به أملس حتى تنزلق كلماته الحلوة بسهولة في أخاديده.

لو كنت أعلم ، لوفرت ليالي السهر .. ومشاعر الذنب التي كانت تجتاحني إثر دخولي إلى الفراش في ليالي الشتاء الباردة دون أن أنتهي من فروضي المدرسية .. ووفرت خجلي بين الطالبات، وتخبئة وجهي عن المعلمة ، حتى أتحاشي إهاناتها .. التي كان أكثر ما يكدرني فيها القول بأن من لم تحل واجباتها أولى بها أن تلزم البيت وتتزوج ، ليتني فعلتها .

لو كنت أعلم أن هذا مصيري .. وهذه نهايتي لبدأت الطريق من أوله ، وكفيت نفسي مؤونة إجهاد جسدي النحيل آنذاك بالاستيقاظ الباكر والسير ساعة يومياً ، على قدمين لا تكادان تحملانه ، ومعي حقيبة مليئة بالكتب ، وقلب مليء بالأماني .. لم يكن الزواج والبيت أحدهما على أي حال .. فالزوج والزواج كانا آخر احتمالاتي !!

كم لعنت الجرس الذي يفزعني صباحاً وكل صباح ، لأقوم فألعن

الأيام المدرسية .. وألعن محرر المرأة وكل من جرى خلفه حتى أوصلنا لما نحن فيه .

كنت أحسد أمي وجاراتها على جلسة المساء ، وسمر الليالي التي تقطعها غفواتهن أمام مدفئة لا يحملن هم دراسة .. ولا علم ، وأنظر إلى اكتنازهن وصحتهن بدهشة .. بالقطع لابد من ذلك ، طالما لم يُستهلكن في سهر واختبارات شهرية ودورية وامتحانات تجريبية ونهائية .. وفّرن عافيتهن للبيت والزواج .. إسترحن استعداداً للراحة في زمن غاف ومستريح مثلهن .. زمن كن يجدن فيه من يخدمهن ويُلبي مطالبهن ، فلا ينزِلن للأسواق .. ولا حتى يناولن أنفسهن كوب ماء ، وعند المساء تجلس خادمة صغيرة تدلك لهن أقدامهن .

كل ذلك بينما نعيش زمناً رديئاً نعمل فيه في الخارج وفي الداخل .. ونستهلك فيه كل طاقات الجمال والنعومة على جدبها .

ولو كنت أعلم أن الحب نصيبي ، والعشق نجاحي لأضعت أيامي في تعلمهما وإتقان فنونهما ، ولكنت الآن جارية رومية تجيد الرقص والغناء والعزف ... وتجيد الدلال والغزل .. وتجيد تطريز الحواشي بخيوط الذهب ، والعودة إلى العصور الأندلسية في زمن السيارات العامة المزدحمة ، والثلاجات الفارغة إلا من زجاجات الماء .. وحتى لو كنت أتقنت ذلك لما تناسب والعصر الذي نعيشه .. ولو أني حددت هدفي من البداية لاخترت أقصر الطرق إليه .. لحملت شهادة تناسب العصر الذي نعيش ، شهادة في الرسم أو الموسيقى ، أو التطريز ، أو الطهو .. تلك هي الفنون التي سأحتاجها في حياتي ومستقبلي .

لكننى واحسرتاه لم أعرف مصيرى ، ولم أعرف الطريق إليه ، فدرست القانون ، ولا أعرف الآن كيف أمارسه فى الفراش أو فى المطبخ !!

تداعت هذه الأفكار إلى مخيلتى وأنا أعدو الطريق خارجة من المبنى الكبير الذى حلمت كثيراً أن أجد لى عملاً فيه .. وخروجاً على المألوف . قررت فجأة ألا أعود إلى دارى لأستكمل دورتى اليومية كدودة دءوب . تكرر دورة إنتاجها اليومى دون كلل .. تعمل اليوم نفس ما عملته بالأمس.. ومنذ سنوات وما يُفترض أن تعمله طوال أيام عمرها القادمة .

وامسكت رأسى بيدى .. وكأنى أتمنى أن أصل إلى داخلها وأقبض عليه، وألقيه خارجاً بعد أن أعتصره بيدى وأخنقه .. فقد كاد أن يموت من سهرت على تربيته أعواماً .. اكتشفت فجأة أننى أتعامل معه خطأ . وكنت أغذيه بأفكار سامة لم توصّله إلى ما كنت أتمنى .. مات عقلى .. كم من الحزن يعتصر قلب ثكلى مثلى .. ليس لأن من سهرت على تربيته اختنق .. ولكن لأنه مطلوب منها أن تخنقه بنفسها وتخرس أفكاره .. وتلغى كل ما غذته به . وتلوم كل من ساهم معها فى تربيته .

كانت أولى المساهمات فى هذه التربية أمى .. فقد سهرت عليه مثلى، وبذرت فيه بذور حب العلم .. وخاطبته كثيراً .. وتحدثت طويلاً عن قيمة الثقافة .. وقيمة العلم .. وأهمية تكريس الحياة فى سبيل تحصيلهما .. وعن الطموحات العملية الكبيرة.. وهيأته ليكون شيئاً كبيراً، يقرأ ويستوعب ويفكر.. ثم يكون صاحب فكر خاص متفرد.. ذهبت إليها بأعوامها السبعين لأردد على مسامعها الواهنة ديباجة من عبارات اللوم المدججة بالأسانيد الفلسفية القاسية : «كل ما بذرتيه كان نباتاً شيطانياً تسلق على

جداره وأخرس فيه حب الحياة واللهو واللعب.. فلم يمارس طبيعته.. ولم يؤد الدور المرسوم له .. ولما اصطدم بأول صخور الواقع هرب من أرض لأرض.. ولكن النبات الشيطاني كان يتسلق داخله حتى خنق سنوات الصبا والشباب بأكداس من المعلومات، وأطنان من المعرفة، وحشو من القراءات».

لُمتها لأنها لم توجّهه الوجهة السليمة منذ البداية فهي التي وضعت البذرة الأولى، لماذا رددت على مسامعي دائماً أنه لا يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون!! فراح عقلي يلتهم العلم وكأنه دودة قراءة شرهة تقرأ كل ما يقابلها، حتى ورق الصحف المتسخ الذي تُلف فيه البضائع ، وتُفرش به الأرفف ، وتذكرت أنني أيضاً ساهمت في ري هذه البذور.. كم صحبته معي إلى مكتبات عامة كبيرة وصغيرة أيام كان يعز القرش لشراء كتاب ؛ لأحمل بين يديّ مجموعة كتب مستعارة، ينكب عليها ليلتهمها بنهم، مُذوِّباً نور العين بين سطورها ، سابحاً بين معارف شتى، علم نفس، وقصص وأدب.. وشعر وفلسفة.. حتى التسلية كانت قراءة.. راحة بين كتاب جاف وآخر أكثر جفافاً.. يطالع قصة أديب كبير أو ديوان شاعر رقيق .

بكيت اليوم كثيراً شعرت أن واجبي يُحتِّم عليَّ خنقه بعد أن تعبت في تربيته .. مطلوب مني أن أنسلخ عنه وأبدأ التلقين بشكل آخر ، فأحاول محو كل ما استوعبه ، ورسخ فيه كمبادىء ، وبذَر بذور جديدة .. بعد تقليب تربته ونزع كل ما فيها من جذور مهما كان تمسكها بهذه التربة .. وعليَّ أولاً أن أمحو عنه فكرة أساسية راسخة حول من يستوون ؟! فالكل سواء في عالمنا اليوم .. بل إنه من الأفضل أن لا يعلم المرء بشيء ، فلا يعي شيئاً ، ولا يستوعب شيئاً ، ولا يفهم ، ولا يحاول التقويم ، والتغيير ، لأن محاولات

التغيير جدار صلد أعظم من سور الصين العظيم .. ومن ينطحه لن يكسر إلا رأسه .

حاولت قلب الاسطوانة على وجهها الآخر .. ما أحلى أن تسترخى يا عقلى .. يا بُنىَّ فى بلادَة أمام شاشة بلهاء تلتقط الفتات ، ولا تُجهد نفسك فى الإلتقاط ، فقط ما يلتصق بك لا تنفضه ، تقبله بفتور .. خاصة ما يُسرد من حواديت صراع الأخوة الأعداء الأزلى .. وقضايا الحب والزواج والغيرة .. ومشاكل الفقيرة التى أحبت غنياً .. ورفض الأثرياء لحب ابنتهم لصعلوك .

ومهمة أخرى عليه القيام بها بشغف .. هى الإستسلام للغو الناس نصف ما يقولونه كلام فارغ .. بعضه سلامات وأشواق كاذبة .. والباقية نميمة تصيب فى مقتل ، وكلها مصوبة لما تحت الحزام .. كلها ضربات قاضية غير قانونية .. وتقييم غير موضوعى لأمور لا تعنيهم .. ومجرد قتل لوقت الفراغ ، لابد أن ندخل فى نسيجه ، ونشارك فيه ، وندلى فيه بدلونا.. فهذا هو العمل الوحيد الذى كان من الواجب أن أعلمه إياه .. كى يبرع فيه ولا يُبارى .

ولا بأس من التفرغ لممارسة أمور يومية تدخل فى إطار ما يسميه الغربيون « دونكي ورك » (عمل حمير) أو « ديرتى ورك » أعمال شاقة ولكنها أعمال بليدة مكررة لا ابتكار فيها ولا إبداع، تمارس بآلية شديدة دون تفكير ، هى شكل من أشكال الخدمة لأناس آخرين عليهم أن يتفرغوا للإبداع والخلق .

هكذا كان من الواجب أن أربيه من البداية .. وليس الآن ، فمن

الصعب أن أبدأ معه من جديد فى العقد الرابع من المستحيل أن أمحو تجاعيده وأجعلها ملساء بلهاء بعد أن قضيت أعواماً أحفر فى أخاديدها .. وبعد أن امتلأت بالكثير من المعارف التى لا جدوى منها ، ولا طائل من ورائها ، ولا يستفيد منها أحد .. ولن تُطبَّق فى عمل .. ولا تُلقَّن لجيل .. ولن تحاول تنوير رأى عام ، أو التأثير فيه .

ويقولون إن خلاياه إذا فُقدت فلن تُعوّض .. فلا حل إذن إلا أن أفتت هذه الخلايا وأذيبها ، ولا شىء أجدى فى هذا الصدد إلا الانخراط فى الهذيان الجماعى الذى يمارسه الناس يومياً .. والتعرض لهذا الكم الهائل من الإحباطات التى تصيبه بأزمات نفسية تقود حتماً إلى مرض عقلى يذهب بخلاياه إلى غير رجعة .. علىّ أن أخنقه بيدى ، وأُطبِق عليه بقوة .. حتى أهرب من أفكاره المتطلعة إلى سماء لا يستطيع التحليق فيها إلا بالخيال .. وأقص مئات الأجنحة ، وأكسر آلاف المجاديف التى يتوكأ عليها ليحقق ذاته ، ويفيد ويستفيد مما تغذى به .

كل ذلك لسبب بسيط هو أنى شخصياً لا أستطيع أن أجد لنفسى موضع قدم يمكننى من أن أحقق له الانطلاق ، الأبواب موصدة .. والزحام شديد .. والمؤهلات المطلوبة ليست بالضرورة علماً أو معرفة .. وليس ضمن مسوغات التعيين فكر ناضج ، وشهادات عليا ، ورسائل علمية .. وكتب مُدبّجة ، ومقالات طوال وخبرة أعوام .. المطلوب فقط واسطة قوية .. وإلا فالويل لك يا ولدى يا من ربيتك على وهم علم يُنتفع به .. ولك الموت والفناء يا قلبى .. لعجزك أن تعى مقولة بسيطة غاية فى البساطة .. قيلت لك مراراً وتكراراً « من واسطتك ؟؟! » .○

«حياة» و«تايه»

"فقدا معاً كل زينة الحيـاة الدنيا ،
وهو يصرخ غيـر مدرك لشيء مما
حـوله، من هول مـا حـدث له !!
وغيـر مـدرك كـيف يعـوض مـا
فـقده؟! أو لعله أيقن تماماً أنه لن
يُعوَّض كسابقه " .

قصتهما ليست ككل قصص الحب التى نسمع عنها الآن .. لكنها قصة حقيقية تبعث فى الأذهان إحدى قصص العشق القديمة ، التى سمعناها ، ولم نصدقها - أو لم نصدق بعض تفاصيلها - وقد صارت مثلاً للصبر والتحمل من أجل المحبوب .. تقاسم فيها البطلان الألم .. وتصابرا عليه.. وكان كل منهما يشد من أزر الآخر ، ويعينه على التحمل ، فيحملان معاً ثقل الأيام ، وآلام مرض طفح على السطح ، فرآه الناس ونفروا منه ، ونبذوا صاحبه ، وطمعوا فى محبوبته الجميلة ، فتحملت الأذى والاضطهاد، والظلم والتطاول ، وأشد ما تحملته تألم المحبوب ، وصراعه مع المرض .. لكن بطلينا تحابا بشكل تقليدى أو لنقل عفوى ، لأن « تايه » - وهذا هو إسمه - ولا يدرى أحداً لماذا أسماه أبواه بهذا الاسم ، وكأنهما تنبأا له بمصيره ومستقبله ، أو لعلها كنية أُطلقت عليه ، حينما لاحظا شروده وتأمله الدائمين ، ورؤياه لما لا يراه أحد سواه .

أياً كان سبب التسمية ، عفواً أو استشرافاً للمستقبل ، كنية أو اسماً حقيقياً - فهو على أى حال من « سواقط القيد » - فلا شهادة ميلاد له

تحسم الأمر .. ومحبوبته هي حياته ابنة عمته .. التي شب فوجد نفسه مولعاً بها .. دون مبرر مفهوم ، فهي خلو من أي مسحة جمال ، هي مسخ من المسوخ التي يبتكرها الآن صانعو الدمى الدميمة ، التي راجت للتدليل على زهد عالمنا في الجمال ، واتخاذه من القبح قيمة محببة ، فحياة - وهذا اسمها - عظيمة الشبه من « الترول » أو « إي . تي » وباقي اللعب الأمريكية الصرعة .. وإن لم يكن صانعوها قد رأوا «حياة» تايه أو وقعت أعينهم عليها ، كي يستلهموا منها شخوصهم الخيالية .. لكن « تايه » رأى فيها ما لم يره غيره ، واستشعر في دمامتها جمالاً غير محسوس إلا له .. ولم تقف أي موانع - قيسية - من نوع ما لقيته ليلى ولبنى في سبيل زواجهما .. فقد تزوجا وحاولا الإنجاب .. لكن الله سلم ، ولم تسفر محاولاتهما معاً عن أي نتاج يجمع صفاتهما الوراثية ، التي لو اجتمعت في إنسان واحد لكان عجيبة الدنيا الثامنة .. وقد استثمرا مصابهما ، واتخذا من محاولتهما الفاشلة مسمى جديداً، اتخذاه لقباً مشتركاً لهما معاً ، فصارا « أم ياسر » ، و« أبا ياسر » ، ولا أحد ممن يعرفهما الآن يعرف أين هو هذا « الياسر » المزعوم ؟ الذي كان مجرد سقط ممسوخ اتصل بالأرض ، أو سقط عليها ، ليسقط مرة أخرى في باطنها .. لكنه ترك لوالديه لقباً جديداً ، وذكرى عزيزة عليهما معاً ، زادت من ارتباطهما ، وولع كل منهما بالآخر .. وإن ترك سقوطه المفاجيء ، وارتطامه الموغل إلى باطن الأرض أثره البالغ في أبيه «تايه » فزاد من رحلات توهانه .. وتمثل له الحدث في مشاهد لا يراها إلا هو، ونظر « تايه » إلى تحويشة العمر ، التي ظل يدخرها للقادم ، الذي أتى ولم يأت .. وبدلاً من أن يجعله فقد جنينه - الذي سقط ولم

يولد - يزهد فى المال ، جعله يتمسك أكثر بإحدى زينتى الحياة الدنيا ، خاصة عندما لم تواته « حياته » بالبنين ، فاكتفى من الحياة بزينة المال.

كان يوماً مشهوداً ، لم يستطع « تايه » استيعاب ما حدث فيه ، فقد رأى وكأنها رؤيا العين - أو كانت كذلك - رأى بين الحلم واليقظة : أشباحاً تحيط به ، تجذبه ثم تلقى به ، تلكمه في وجهه ، ثم تتحسس صدره وجنبيه ، وهو يرجف كجرذ جبلى عجوز ، يخشى من خطر لا يعرف كنهه.. لكنه يخشاه إلى حد الرعب والهلع ، ولم يُفرّق بين الرؤى التى اعتاد أن يراها وحده ، ويكذبه كل الناس فيها - حتى محبوبته حياة - وبين ما يراه الآن ! ! هل من يمسكون بتلابيبه هذه اللحظة حقيقة أم خيال ؟! لكن أى خيال ؟ فهو يعتقد جازماً أن كل ما يراه حقيقة - حتى لو كذبه العالم كله - فهو يصرخ فى قوم يفرّون من أمامه ولا يستطيع اللحاق بهم .. لكنه اليوم يتعامل معهم ، ويصطدم بهم .. ويشعر بالألم من ارتطام رأسه بقبضاتهم ، وهو يعى تماماً ما يريدونه به .. يريدون أن يسلبوه ما بقى له من زينة الدنيا ، والغريب أنه أسلمها لهم .. فقد فك الرباط عن وسطه بيديه هو ، بعد أن تحسسه أحدهم ، وأمره بحل عقدته المحكمة .. ولم يدر بعد ذلك شيئاً مما دار حوله .. إلا بعد أن استيقظت « حياة » على صوت صراخه ، الذى كانت قد اعتادته - وإن علا وطيسه هذه المرة - وأخذت تهدىء من روعه ، وتُربت على ظهره وتقول له :

- مالك يا خوى .. مالك يا واد خالى .. معلهش .. معلهش

وكلما زادت فى عبارات المواساة العمياء ، كلما علا صراخه ، حتى كاد يوقظ سكان البناية التى يحرسانها ، وهى تخشى أن يفتضح أمره ، وينكشف

ما حـاولت سـتره على مـدى سنوات زواجهـما ، إلى أن هاجـرا من « بنى عمـران » الغافـية غربـى النهر الكبيـر بقرب « دير مـواس » ، وجاءا مـعاً ، ليعملا فى « بَوابة » البنايات فى مصر .

ظل « تايه » هذه المرة يصرخ ، ويولول كالنساء ، ويلطم خديه ، وهى لا تدرى ماذا ألم به؟! ولماذا واتته النوبة هذه المرة بهذا العنف والهياج ؟! ولماذا استيقظ قـبل الفجـر ؟! والدنيا مـازالت ظلاماً رمـادياً ، كأنه دخـان حريق بعيد، وظل يصرخ منادياً ، ساباً ولاعناً أشخاصاً لا تراهم ، وظنت أنها رؤاه المعتـادة ، فأخـذت تهدىء من روعـه .. وكلما بالغـت فى ذلك ، استـشاط «تايه» غضبـاً وصرخ وهو مكوم لا يستطيع حراكـاً ، وما أن بزغت الشمس حتى رات بعينيـها آثار المعركة على وجهه ، وأعلى رأسـه ، وحول عينيه .. دماء ، وكـدمات تكتم الدمـاء ، وتحيلها إلى ألوان طيف داكنـة ، بنفسجـية وزرقاء وخضراء ، فـتيقنت أن ما يقوله صـدق وحقيقة ، لا خيـال فيها ولا تهيـؤات .. فالتصقت به أكـثر ، تخفف عنه ، مـدركةً أن المصاب مشـترك ، وأنهمـا فقدا مـعاً كل زينة الحـياة الدنيا ، وهو يصـرخ غيـر مدرك لشىء مما حوله ، من هول مـا حدث له !! وغير مـدرك كيف يعوض ما فـقده ؟! أو لعله أيقن تماماً أنه لن يُعوَّض كسابقه .

ظلت « حيـاة » تتعـشم أن يهدأ بمرور الأيام .. لكنه أبداً لـم يهدأ .. بل أخذت تتعاقب عليه نوبات الصراخ والذهول الصامت ، الساكن ، المتأمل ، إلى أن يهب صارخـاً فى لا شىء ، منادياً بأسمـاء بعينهـا لا تعرفـها ، لاعناً وشاتماً إياهم بأقذع السباب .. ومع تزايد نوبات الصراخ التى تذكيها رؤاه ، تزايد نفور الناس منهما معاً ، فماذا يُجبر أصحاب العمارات وسكانها على

الإبقاء عليهما ، والاستيقاظ يومياً على صوت « تايه » يصرخ فيمن يراهم وحده - ولا يراهم أحد سواه - خاصة وأن نوباته لا تواتيه إلا ساعة يسكن كل شيء من حوله ، في هدأة الليل ، أو ساعات القيلولة ! !

ظلت « حياة » تنتقل به من بناية لأخرى مع امتداد العمران .. يحرسان معاً مواد البناء ، وسط الخلاء والصحراء .. يحيط بهما فضاء رحب ، يتسع لصرخات « تايه » دون أن يتأذى منه أحد .. وتخرج هي يومياً مع أول خيوط النهار ، لتسير على قدميها حتى تصل إلى مشارف العمار، تخدم في البيوت ، وتحرص على العودة إليه قبل أن يحل الظلام ، حاملة له بقايا الطعام ، التي تُمنح لها ، وكثيراً ما كانت تدخر له غذاءها ، لتضعه أمامه ، وهو مكوم على حافة الطريق في وضع القرفصاء يرقب قدومها .. ومن خلفه أسياخ الحديد ، وأكوام الرمال ، وأكياس الأسمنت التي يحرسها ، ويبش « تايه » لمقدمها وكأنه طفل صغير ينتظر أمه .. وما تلبث ساعات قليلة يقضيها معها في سكون ودعة حتى يحل الظلام ، فتعاوده نوبات الصياح والرؤى .. وهي تحاول تهدئته ، وتُكذِب رؤاه مرة .. وتؤكدها مرة . وهي لا تراها ؛ حتى تشتري هجوعه ، وخلوده للنوم ، ليتناوبا السهر في دورات حراسة متعاقبة ، وهي راضية بساعات نوم لا تزيد عن أصابع اليد الواحدة ، لتقوم مع مطلع الشمس ؛ لتجري عليه ، فهو كما تقول : « واد خالها ، وراجلها » ، وهي تحبه .. وتنفي عنه تهمة الجنون التي يصمونه بها ، وكلما أعيتها السبل في تهدئته تُكبِر في أذنه ، وتدفع بعضاً مما تكسب - وأحياناً كل ما تكسب - في عمل أحجبة ، ورقى تربطها له في ملابسه ، وتضعها له تحت رأسه ، وتوهم نفسها أنه يهدأ ولو نسبياً ، وتذهب به إلى

الأطباء ، فلا يمنحوه إلا أقراصاً ، يتناولها فينام لأيام متتالية ، لا تستطيع فيها أن تتركه لتذهب إلى مخدوميها ، وتستعين ببعض من يزورونهم لماماً من أهل « بنى عمران » الطامعين فيما تبقى لهم من زينة الحياة الدنيا ، وكلما زادت نوبات الهياج زاد اعتمادها على هؤلاء الأقرباء ، الذين تستشعر طمعهم فيهما ، وفيما يملكان - وكأنه حق مكتسب لهم - موقنين أنه سيئول إليهم يوماً ما بالإرث ، فلما لا يحصلون مقدماً على جزء منه .. حتى كان اليوم الذى رفض فيه « تايه » تناول أى دواء .. ورفض النوم .. ورفض الأحجبة والرقى ، وألقى بها جميعاً ، وكأنه قد وعى أنه لا قيمة لأى شىء ، وهو لا يعى من أمور الدنيا إلا ما يشاهده فى رؤاه وعالمه الخاص به وحده ، فما كان من « حياة » إلا أن حملت هذه الأحجبة التى اتسخت كسوتها من التراب والعرق ، وفقدت قدسيتها بما علق بها من وسخ ونجس ، واهتز إيمانها بها غير مصدقة ، وسعت بها - وهى الأمية الجاهلة - إلى من يقرؤها لها .

جلست القرفصاء ، واضعة رأسها الحائر المتعب بين ركبتيها وكفيها ، تنظر إلى كل حجاب وهو يُفض خائفةً وجلة .. فهى مؤمنة بقيمتها بقدر ما دفعت فيها - وهو كثير - تشعر وكأنها إذا فضت إحداها فلابد أن عفريتاً قد يطل منها ، أو يد جنّى قد تمسك بتلابيبها ، أو رعدة ستمسك بها فتشل أطرافها .. لكنها وبنفس القدر من اليأس الذى أسلمها للخرافة ، تتوجس خيفة من فتح أى حجاب ؛ خشيةً وإجلالاً للأسياد المسكين « بتايه » .. وما إستسلمت اليوم لفكرة فتح الأحجبة ، ومعرفة ما بها إلا يأساً ، واندفاعاً وراء وعد بأن تُمنح ما يفضُلها جميعاً .

جلست تنظر غير مصدقة أن بداخـل أحدها ورقة بيضاء مطوية ، وقطعاً من رقائق حـجرية ، وبعضـاً من تراب ، والآخر به ورقـة عليها « شـخبطة » بقلم أحـمر سـميك ، وبعض حـبات من « عين العـفريت الحـمراء ، وحـبة البركة السوداء ، ومسحوق الكركم الأصفر » ، والثالث به قطعة من كيس « نايلون » سميك مُترب ، وعليه أيضاً خطوطاً لا معنى لهـا باللون الأحمر.. وتوهمت أن المكتـوب يمكن أن يُقرأ ! فـصدمـها القـول بأنه مجـرد خطوط مـجردة مـن أى معنى !! والرابـع هراء .. والخامس خـواء .. والسـادس .. والسابع .. كلها تحتوى على الوهـم والخرافة .. وهى دفـعت فى كل منها ما يزيد على عشـرين جنيهاً من كدها ، وخـدمتهـا فى البيوت ، وتحـمُّلها لكل صنوف الكدر والعذاب ، ورضيت بالمهانة من أجل أن تحصل لمحبوبها على السكينة ، وكلمـا فُض حـجاباً خـبطت على رأسـها بكلتـا يديهـا من خليط المشـاعر التى تـثور داخل هذا الرأس من دهشـة ، وندم ، وحنق ، وغـضب مكتوم ، وحـسرة ، وارتج جسـدها المتهـالك من وطـأة هذا المزيج المتلاطم من المشاعر .. وما لبـثت أن فزعت ، وهبت لتجرى عائدة إلى حـبيبها الذى هاجـرت به من « بـنى عـمـران » ، وهربت به من كل الأمـاكن العـامـرة ، والمأهولة بالسـكان إلـى أطراف الصحـراء .. يرى مـا لا تراه مـؤمنة أنه يرى الحق والصـدق ، وأنهـا هى العـمـيـاء التى لا ترى ، وهـو العـاقل - وهى المجنونة ، والتصقت به تُؤَمِّن على كل ما يراه ، وتشـاركه صراخه على أناس لا أحد يراهم غيرهما معاً . ○

رد السؤال

" وكان رفيقـها - الذى إقترنت به قـبل سنوات سـبع - يحـاول أن يفكـر مـعـهـا فى السـبب دون جـدوى ، فيـعزونـه أحيـاناً لأكلة ثقـيـلة .. أو قلـة نوم .. دون أن يدركا سببه الحقيقى .. " .

لم تدر كيف تتخلص منه .. فقد بات ملازماً لها .. وتعايشت معه حتى اعتادته ، وصار جزءاً من نسيج رأسها ومبطن له .. يتنقل من جانب لجانب فجاة .. وكأنها رأسه هو .. لا تعرف كنهه !! ولا لماذا يأتى ؟! .. ولماذا يخفت أحياناً ؟! ثم يعاودها فجأة !!

تشاكت للناس .. ولأقربهم إليها .. لكن الجميع بدأوا يتذمرون من شكواها ، ويضيقون بها .. بل أسموها « شكاوى » وأصبحت النسوة يهربن منها .. ومما تقول .. فإذا ما أقبلت تنفلت كل واحدة منهن متعللة بشيء ، أو بلا شيء ؛ كي لا تستمع إلى وصلة الشكاية المعتادة .

حتى جلسات الأنس أو « الوناسة » كانت تفتقدها بسبب شكواها المستمرة من ذلك الصداع النصفى المفاجيء .. الذى يلازمها منذ سنوات لم تعد تحسبها أو تعدها .. وإن كانت أحياناً تضع يدها على رأسها ، وكأنها تضعها على جرح ، كى تقبض على نقطة تنوير ، أو بصيص تستطيع أن تستدل منه على سبب مجيء هذا الزائر الثقيل .. وتقول ..

– لو أعرف بس بياجى منين ؟! وإيه السبب ؟! بالليل ديمه .. ياجى بالليل .. بعد العشا .. ساعة إيه ....!! مش عارفة ؟!

وكان رفيقها - الذى اقترنت به قبل سنوات سبع - يحاول أن يفكر معها في السبب دون جدوى ، فيعزونه أحياناً لأكلة ثقيلة .. أو قلة نوم .. دون أن يدركا سببه الحقيقي ..

وكان زوجها ينظر إليها متحسراً على ما فعله هذا الزائر بجميلته التى تزوجها وهى بعد غضة بضة .. يتهافت عليها شباب القرية كلهم .. وينهدوا لرؤية قدها المكتنز ، وهامتها الممدودة إلى أعلى بشموخ .. تحمل جرة تسندها بيد واحدة ، وأحياناً تسير بعجب رافعة رأسها الجميل ، وكأنها لاعبة في سيرك !! كان الشباب يختفون فى باطن الجسر ؛ كى يلمحوها من بعيد .. وأحياناً يكمنون لها بين أعواد الذرة ؛ كى يفاجئونها بغتة بأصوات لاهية متخابثة .. ورغم المباغته كانت الجرة لا تميل ، ولا ينسكب بعض مما فيها ..

كانت جميلة ، وتعرف أنها جميلة .. وتعرف أيضاً أن الكل ما بين مغرم ، ومتيم ومعجب .. حتى رجال « الوسية » كانوا يحاولون أن ينادوها؛ ليسألوها عن أبيها ، أو أحد أخواتها ؛ فقط لأنهم يستملحونها ، ويريدون إبقائها ولو لدقائق بينهم ، يتفرسون في أسنانها الفلجاء ، ووجناتها المستديرة الناهدة بحنو ، وغمازتين مكسوتين بحمرة الخجل .. وهى ترد باقتضاب دون أن تنظر لأحد منهم مسدلة أهدابها السخية على عيون بلون العسل .. رغم ما يحمله صوتها من تدلل فى مخارج الألفاظ الريفية ، فتضيف إلى لهجتها جمالاً غير معهود من غيرها .. وتتفلت وهى تتحشم بطرف طرحتها السوداء .

كان الجميع يتساءلون : من يا ترى سيحظى بهذا الجمال كله ؟! ومن هو

السعيد الذى دعت له أمه فى ليلة مقمرة .. أن تكون هذه « الصبحة » من نصيبه .

وكانت بالفعل من حظ « سعيد » .. وهو سعيد الحظ الذى فاز بها ، دون مبرر معقول بالنسبة للجميع إلا النصيب .. و« النصيب إذا حكم فلا رد لقضائه » هكذا كانوا يقولون عندما عرفوا بزواجها .. وتفكهوا قائلين : إن « النصيب يأتى أحياناً من النصيبة !! » .

ورحلت جميلة القرية إلى القاهرة مع زوجها .. ولم ينسها الناس ، بل كانت مثلاً يضرب فى سمر الليالى على « المصاطب » وفى المقاهى عن الجميلة التى تزوجت من لا يستحقها .

وما كانت لتأتى إلى قريتها إلا لماماً .. وكلما أتت كانوا يلاحظون ذبولها ، وخبو جذوة جمالها الفاتن ، ويستمعون إلى شكواها من ألم فى الرأس يجسم على جانب واحد ، يمسك بطرف حاجبها الأيسر ، ويمتد كأنه كف قابضة من حديد .. كما كانوا أيضاً يستمعون لشكوى « سعيد » فيتصورون أنه يحاول أن « يخزى العين » ؛ كى لا يحسدوه .. ثم تأكدت لهم شكواه كلما رأوا مرضها الدائم وشكوتها المستمرة ، وصمتها المطبق .. فباتوا لا يحسدون « سعيد » بل يرثون لحاله .. وإن قال بعضهم أنه السبب ، فهو لم يكن لها .. وجابهه بعضهم بالقول :

- ما كانتش لك يا سعيد !! إنت مش خيّالها !!

فيزيد فى الشكوى منها ومن مرضها الدائم .. ومن جولاته بها على الأطباء فى « المستشفيات الميرى » كلها .. وحتى عند « الدكاترة

الخصوصى» .. ولا فائدة .. بعد أن جرب معها كل « الوصفات البلدى » وكل التعاويذ والسحر .. وهى كما هى !!

حتى نصحوه بزيارة الأولياء ولم تُشفي .. وأخيراً حولوها فى المستشفى إلى من يسمونه كما يقول « الدكتور النفساوى » وحتى هذا غلب معها.. وكانت تتهرب من زيارته .. إلى أن عادت من عنده تصرخ وتبكى ، فراح « سعيد » يسألها عما دار بينها وبينه .. فجلست تحكى له وهو مشدوه!! كيف يجرؤ هذا الطبيب الوقح على « مسايرة » زوجته فى مثل هذا الحديث ؟! وكيف جرؤت هذه الفاجرة أن تفضى إليه بمثل هذا الكلام .. وكيف بدأ معها هذا الحوار أصلاً ؟! وهى تؤكد لسعيد أنها لم تكن تعى مقصده فى البداية .. فقط كانت تجاوب وترد على أسئلته الكثيرة التى حاصرتها .. فحاولت الإفلات منها ومنه ، وأخيراً قالت له متدفقة فى الحديث ، وهى تضع رأسها بين كفيها .. جالسة القرفصاء ، رافضة أن تتمدد على «سرير الكشف» وهو لم يكن يقاطعها، فقط قال لها إحكى لى.. بعد أن أعطاها حقنة « حلت مفاصلها » فتربعت على بلاط الحجرة ممسكة برأسها المنحنى على صدرها .. ناظرة إلى الأرض ، شاردة بذهنها إلى البعيد .. وكأنها تستخرج ذكرياتها الدفينة من بين بلاطات الأرضية المنكسرة .

ورَدت على أسئلته الفجة التى اقتحمتها ، « بالحكى» متجنبة مقاصده فقالت :

– أمى فاتتنى صغيّرة .. اتعلمت خبيز ورقاق، وفايش، وعيش شمسى.. علمونى جيراننا .. أبويا مرضيش يتجوز .. وأخواتى أبو محمد ، وأبو طلعت ، وأبو رجب كلهم اتجوزوا .. هما الكبار .. وأنا الصغيرة خالص ..

يرجع يسألنى فى حاجات كده معرفش أرد عليها ، وأحكى له على كل الأطبه إللى زرتهم .. يرجع ويسأل إمتى اتجوزتى ؟ إنتى اطهرتى ؟!

غصب عنى بعد ما عطانى الحقنه لقيتنى بقول له :

- كانوا خايفين عليّ .. وأختى من قبلى جت الدايه تقطع لها - ولكل البنات - علشان تصحِى ، ومتضعفش لازم يطهّروا .. كلنا كده .

- .... ؟

- أنا لما جيت مصر عرفت إن ده غلط .. قالت لى بنت شغاله عند أم رحاب اسمها نعمه .. أبوها جوزها صغيرة .. والعروسة عندنا لم تخش تروح الدايه وراها .. علشان هناك جبلى مغفلين لازم يشوفوا دمها فى المحارم .. والناس تنقط ، والدايه تشوبش .. ده لازم .. أحسن الناس تعايرهم .. لولا فيها كدا !! لولا دخلت فطيس .. شوفوا الجهل والتغفيل!!

- .... ؟

- دلوقت العروسة تنجّى إللى يلد عليها .. والأب يقول إللى يعجبك.. أنا مغصبش عليك .

- .... ؟

- أنا اتجوزت أيام الجهل .. سلو بلادنا .... لو عندى بنت ماكنتش طاهرتها .. ولو كنت فى مصر مكنش طهرونى .

صرخ فيها زوجها .. وقام يضربها بقسوة .. فبكت وقالت من بين نشيجها :

- قلت له الصـداع من وجع عينيه بقـيت ألبّط لها .. العين عـشيّـها ولا تفطرّها أغـسلهـا وأحط القطره بـالليل .. مش ديه .. يوم بعـد يوم لبـوط تتهدى .. لكن الصداع مش بيروح .. أعمل إيه ؟؟

الراجل الدكتـور إللى ما يستحى .. أقـوله عينيه تعـورنى .. يسألنى إنت اطهّـرتى ولا لأ ؟! رديت عليه وأنا خـزيانه .. ووشى منه فى الأرض . ومن غير حـيا سألنى عنك .. عننا يعنى .. قلت له الجواز هو إلـلى جوزى يعمله .. أنا معرفش حاجة .

-. .... ؟

- هو صحيـح الصداع ابتدى بعد مـا إتجوزنا على طول .. لكن إيه إللى دخل ده فى ده ؟!!

ويصرخ زوجها :

- قلتى له إيه ؟!

- وشى سخـن وحسيت إنـه إحمر .. ورحـت فـزه من قدامـه .. وجلت له.. الناس بتـجول : « جوزك يحـبك عفيـه » .. وأنا عايزه أخف عـشانه .. يـقى إزاى هو السـبب ؟!! ده دكـتـور خرفـان .. وأهو جيت .. أجـولك الدكتور بيجول : « إنت السبب » .

هَمَّ زوجـهـا بكـل الحـمـاس الصـعيدى لـيضـربهـا « بمداسـه » .. ثم جرها من شـعر رأسها الموجـوع ؛ ليخرجهـا من داره ، وهو يلعنها ويسبـها قائلاً :

- يا فاجرة يا بنت الفرطوس .. أنا السبب !!؟؟

وخرجت تترنح وتلطم وجهها بـجماله الذابل ، ورأسها المصدوع وهى تصرخ :

- هو إللى جـال .. مش أنـى .. أعـمل إيـه ؟ سـؤال ورد جــواب !! مرضّش عليه يعنى ؟! راسى يعـورنى .. عايزة أخلص من الوجع .. رديت عليه .. وبس !!○

خلاصة الدراسة الأسلوبية

للمجموعة القصصية الأولى :

« بقعة الدم الهاربة »

بقلم : د . حسن فتح الباب

- القصص تتفاوت فى المستوى الفنى .
- جملا تشد القارىء بصدق الإحساس .
- تلقائية التعبير (خلو من الاصطناع والإلتواء والتقعر) .
- أسلوب ينم عن رهافة الإحساس وعمق الشعور بالزمن .
- فحوى أسر وإيقاع شجى .
- سمة مميزة لأسلوب الكاتبة هى مزج الذات بالآخر والخروج من بؤرة الخاص إلى فضاء العام .
- الخوض فى خفايا المرأة وأدق أسرارها مواز لكشف الواقع الاجتماعى والسياسى .
- التداعيات أو توارد الخواطر سمة أخرى من سمات القص عند الكاتبة .

- التفاصيل الدقيقة ذات دلالة .
- المفردات اختيرت بعناية إختياراً فجّر ظلال المعنى والحرف فأوحى بنضارته وعمق أبعاده مثرياً النص .
- امتاعاً جمالياً وإثارة نفسية أو مشاركة شعورية .
- يشع ويشى برقة الأنثى ذات الطبيعة السوية ، وحنان الأم المفعم بالعذاب والتضحية .
- لا تعصب لبنات جنسها على خلاف بعض كاتبات القصة والرواية .
- بلورة مشعة ونسيج مضفور لم يفلت من يد الكاتبة خط منه .
- الدموع وتر مأساوى تعزف عليه حتى لا تكاد تخلو منها قصة واحدة لكنها تنوع فى اللحن .
- كما تنوع في وصف العيون التى تكاد تطل علينا من كل صفحة .
- لوحات تصويرية تشكيلية ذات دلالة مختلفة .
- الأحداث الصغيرة المفجرة للدلالة .
- تركز على النواه الحية للواقع المتشابك .
- الأحداث الصغيرة العابرة لا تقل عن الحدث الرئيسى دلالة أو هى تنويع عليه مختلفاً عنه لكنه يصب فى نهر المضمون .
- تعزف على وتر التناقض بين البراءة فى الطفولة والشباب الأول وبين التشوه الذى أصاب إنسان العصر .
- التداخل بين حدثين سمة اسلوبية للقاصة .
- يرتفع مستوى القص بالشحنات الشاعرية المتفردة فى ثنايا النص .

- تمزج بين لوحات الطبيعة ولوحاتها النفسية فى وحدة واحدة فى مزيج من المشاهد الدالة كل من وجهيها مرآة للآخر .

- تبلغ ذروة من جمال الإبداع الأدبى القصص الشاعرى .

- مشبوبة بجمال الطبيعة مرهفة الانفعال بتحولاتها ووقعها فى النفس فعلاً أو رد فعل رفضاً أو استجابة ، شجى أو بهجة وهو الإحساس ذاته بمفردات الواقع حولها من جماد أو حيوان .

- صياغة تشبه غزل المنمنمات .

- الحزن الذى يشيع فى كثير من القصص ليس« غلافاً لها ولكنه إستبطان لأعمق مشاعر الخوف من المجهول .

- تناول الجنس تناولاً شفيفاً من خلال إشارات تومض كالبرق فتحقق متعة الإبداع ولا تبتذل التجربة .

- موهبة ورهافة إحساس - ورصيد موفور من التجارب والخبرة الحياتية والإبداعية .

- واعدة بالمزيد من الإنتاج الموفى بأغراض الفن الأصيل والمحقق لشروطه التى لا تكتمل إلا للمنذورين للعطاء الإبداعى .○

الفهرس

من قائمة الإصدارات

رواية .. قصة

ليلة العشق والدم	إبراهيم عبد المجيد
حمدان طليقاً	أحمد عمر شاهين
تباريح الوقائع والجنون	إدوار الخراط
رقرقة الأحلام الملحية	إدوار الخراط
محلوفات الأشواق الطائرة	إدوار الخراط
دنا فتدلى (من دفاتر التدوين ۲)	جمال الغيطاني
مطربة الغروب	جمال الغيطاني
دموع إيزيس	حسنى لبيب
أحزان رجل لا يعرف البكاء	خالد غازى
مسالك الأحبة	خيري عبد الجواد
العاشق والمعشوق	خيري عبد الجواد
حرب اطاليا	خيري عبد الجواد
حرب بلاد نمنم	خيري عبد الجواد
حكايات الديب رماح	خيري عبد الجواد
فى لهيب الشمس	رأفت سليم
أنا كنده	كيروجا ترجمة: رزق أحمد
سيرة عزبة الجسر	سعد الدين حسن
شجرة الخلد	سعد القرش
شهقة	سعيد بكر
أيام هند	سيد الوكيل
الممنوع من السفر	شوقى عبد الحميد
الدميرة	د.عبد الرحيم صديق
جسد فى ظل	عبد النبى فرج
الفوز للزمالك والنصر للأهلى	عبد اللطيف زيدان
ليس هناك ما يبهج	عبده خال
لا أحـــــد	عبده خال
صعيدى صَح	د. عزة عزت
الشاعر والحرامى	عزت الحريرى
فى انتظار ما لا يتوقع	عصام الزهيرى
إينارو	د. على فهمى خشيم
تحولات الجحش الذهبى	لوكيوس ابوليوس ترجمة د.على فهمى خشيم
سراديب	عفاف السيد
الزجاج المكسور	د . غبريال وهبه
ينابيع الحزن والمسرة	فتحى سلامة
خبرات أنثوية	قاسم مسعد عليوة
ترانزيت	ليلى الشربينى
مشوار	ليلى الشربينى
الرحل	ليلى الشربينى
رجال عرفتهم	ليلى الشربينى
الحلم	ليلى الشربينى
النعم	ليلى الشربينى
الخروج إلى النبع	محمد قطب
رشفات من قهوتى الساخنة	محمد محى الدين
الحبيب المحدون	د. محمود دهموش
فندق بدون نجوم	د. محمود دهموش
نسيج الأسماء	منتصر القفاش
حافة الفردوس	نبيل عبد الحميد
خلف النهاية بقليل	وحيد الطويلة
قرد حمام	يوسف فاخورى

مسرح ..

هذه الليلة الطويلة	د.أحمد صدقى الدجانى
اللعبة الأبدية ـ (مسرحية شعرية)	محمد الفارس
مملكة القرود	محمود عبد الحافظ

شعر ..

أول الرؤيا	إبراهيم زولى
رويدا باتجاه الأرض	إبراهيم زولى
قصائد حب من العراق	البياتى وآخرون
بدلاً من الصمت	درويش الأسيوطى
من فصول الزمن الردئ	درويش الأسيوطى
كتاب الأمكنة والتواريخ	عبد العزيز موافى
إضاءة فى خيمة الليل	على فريد
نصف حلم فقط	عماد عبد المحسن
حواديت لفندى	عصام خميس
عطر النغم الأخضر	عمر غراب
سراب القمر	فاروق خلف
إشارات ضيط للمكان	فاروق خلف
أوراق مسافر	فيصل سليم التلاوى
صلاة المودع	صبرى السيد
دنيـــا تناديـــا	طارق الزياد
إذهب قبل أن أبكى	د . لطيفة صالح
الغربة والعشق	مجدى رياض
غربة الصبح	محمد الفارس
وَتَس	محمد الحسينى
ليالى العنفاء	محمد محسن
غلمة فى حجر صيادها	ناجى شعيب
العجوز المراوغ يبيع أطراف النهر	نادر ناشد
هذه الروح لى	نادر ناشد
فى مقام العشق	نادر ناشد
ندى على الأصابع	نادر ناشد

دراسات ..

هاجس الكتابة	د . أحمد إبراهيم الفقيه
تحديات عصر جديد	د . أحمد إبراهيم الفقيه
حصاد الذاكرة	د . أحمد إبراهيم الفقيه
قراءة المعانى فى بحر التحولات	أحمد عزت سليم
ضد هدم التاريخ وموت الكتابة	أحمد عزت سليم
ثقافة البادية	حاتم عبد الهادى
المثل الشعبي بين ليبيا وفلسطين	خليل إبراهيم حسونة
أدب الشباب في ليبيا	خليل إبراهيم حسونة
العنصرية والإرهاب فى الأدب الصهيونى	خليل إبراهيم حسونة
أباطيل الفرعونية	سليمان الحكيم
مصر الفرعونية	سليمان الحكيم
البعد الغائب : نظرات فى القصة والرواية	سمير عبد الفتاح
رحلة الكلمات	د . على فهمى خشيم
بحثاً عن فرعون العربى	د . على فهمى خشيم
أعلام من الأدب العالمى	على عبد الفتاح
زمن الرواية : صوت اللحظة الصاخبة	مجدى إبراهيم
فى المرجعية الاجتماعية للفكر والإبداع	محمد الطيب
الجات والتبعية الثقافية	د. مصطفى عبد الغنى

تراث ..

كشف المستور من قبائح ولاة الأمور	د . أحمد الصاوى
رمضان - زمان	د . أحمد الصاوى
القصص الشعبى فى مصر	إعداد خيرى عبد الجواد
إغاثة الأمة فى كشف الغمة	
الفاشوش فى حكم قراقوش	
الحكمة المدنية لابن المقفع	

بالإضافة إلى : كتب متنوعة : سياسية - قومية - دينية - معارف عامة - أطفال .
خدمات إعلامية وثقافية (اشتراكات) : ملخصات الكتب - وثائق - النشرة الدولية - دراسات عربية - معلومات - ملفات صحفية موثقة.

الآراء الواردة فى الإصدارات لا تعبر بالضرورة عن آراء يتبناها المركز

صعيدى صح

.. لو كنت أعلم أنى لن أحتاج فى حبه إلا لفن العشق ، وفن الطهو لما أتقنت غيرهما .. ولما أضعت سنوات العمر الغض أخلع مقلتىّ على صفحات الكتب ..

لو كنت أعلم ، لوفرت ليالى السهر ..

ولو كنت أعلم أن الحب نصيبى ، والعشق نجاحى لأضعت أيامى فى تعلمهما وإتقان فنونهما ، ولكنت الآن جارية رومية تجيد الرقص والغناء والعزف .. وتجيد الدلال والغزل ..

لكننى واحسرتاه لم أعرف مصيرى ، ولم أعرف الطريق إليه ، فدرست القانون ، ولا أعرف الآن كيف أمارسه فى الفراش أو فى المطبخ !!"

من قصة

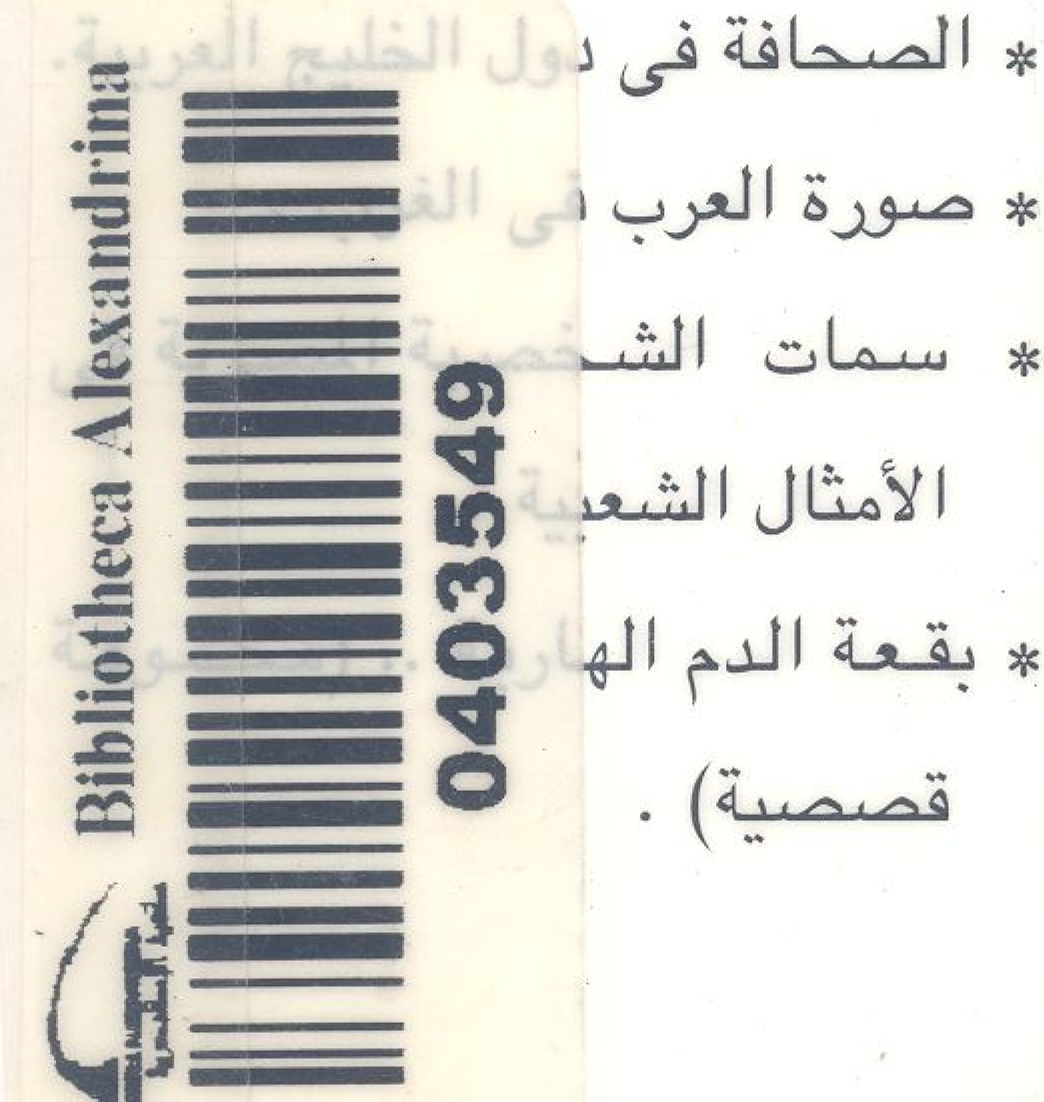
(واسطتك مين)



د. عزة على عزت

- مدرس التحرير الصحفى - قسم الإعلام - كلية الآداب - جامعة المنيا.
- كاتبة صحفية فى عدد من المجلات والصحف العربية .

- من مؤلفاتها :



* الصحافة فى دول الخليج العربية.

* صورة العرب فى الغ

* سمات الشخصية

الأمثال الشعبية

* بقعة الدم الها

قصصية) .

